حلمي النمنم



التاريخ المجهول

المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين



تصميم الغلاف : جوجي



هذا الكتاب



استقر رأي معظم الباحثين علي أن الكُتّاب والمفكرين العرب لم يدركوا ما تقوم به الصهيونية في فلسطين؛ إلاَّ بعد صدور وعد بلفور في نوفمبر 1917، وذهب فريق آخر من الباحثين إلي أن الوعي الحقيقي بالخطر الصهيوني كان مع حادث البراق في سنة 1929، رغم الهجرات الصهيونية إلي فلسطين بدأت منذ 1882.

هذا الكتاب دراسة لأربعة من الكُتّاب والمفكّرين، انتبهوا و
منذ وقت مبكر إلي ما يجري علي أرض فلسطين من ه
متزايدة ومستعمرات تُقام وأسس دولة يجري وضعها، وه
وجورجي زيدان، وشكيب أرسلان، وشبلي شميّل. لقد كـ
الأخير للقرن التاسع عشر وقدّموا أربعة مواقف مما يجر
العادة تعامل الجميع مع آرائهم علي سبيل الكلام المُرسـ
حدث!.






al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

التاريخ المجهول
المفكرون العرب
والصهيونية وفلسطين



مرايا الكتاب

الكتاب : التاريخ المجهول

المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين

تأليف: حلمي النمنم

المدير المسؤول : رضا عوض

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة ٣٥٢٩٦٢٨/ ٠١٢

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس . ٥٧٥٢٨٥٤

الإخراج الداخلي : جوبي

جمع وتنفيذ : القسم الفني بالدار

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

رقم الإيداع :١٧٨٩٩ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولي : 977-6174-22-1

التاريخ المجهول

المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين

حلمي النمنم

محتوى الكتاب ■

الصفحة	الموضـــــــوع
٩	**مدخل**
٣٩	**الفصل الأول**
٤٠	فلسطين ... المسألة اليهودية وظهور الصهيونية ....
٦٣	**الفصل الثاني**
٦٤	رشيد رضا: الاتفاق مع زعماء الصهيونية أو المقاومة.....
٨٧	**الفصل الثالث**
٨٨	شكيب أرسلان: التخوف من دولة صهيونية وسواس!..
١٢١	**الفصل الرابع**
١٢٢	جورجي زيدان: لن يمض زمن طويل حتى تصير فلسطين لليهود ....

الموضــــــوع	الصفحة
الفصل الخامس	١٤٥
شبلي شميل: الصهاينة مدرسة لنا	١٤٦
الفصل السادس	١٧١
أفكار ووقائع..	١٧٢
الملحق	١٨٩
اليهود في فلسطين ومستعمراتهم للأب هنري لامنس ...	١٩٠

مدخل

هناك رأي شائع بين كثير من الباحثين والمثقفين العرب أن العالم العربي كله، وربما الشعب الفلسطيني ذاته، لم ينتبه إلى الخطر الصهيوني على فلسطين، حين ظهوره، وأن بداية الوعي والانتباه لما يجري كان مع صدور وعد بلفور، في نوفمبر ١٩١٧ وقبل نهاية الحرب العالمية الأولى، والذي قدم فيه وزير خارجية بريطانيا بلفور تعهد "بريطانيا العظمى" بتأسيس وطن قوي لليهود على أرض فلسطين، وقد أخذ ذلك الرأي قوة الحقيقة وسطوتها لدى الكثير ين، في نقاش مع المخرج السينمائي توفيق صالح عقب عرض خاص لفيلمه.. المخدوعون والمأخوذ عن قصة غسّان كنفاني "رجال في الشمس" قال: لو كان هناك مدرس في كل قرية فلسطينية ينبه الناس إلى ما يجرى، لما حدث هذا كله!!

والذين يرددون غياب الوعي العربي، يرجعون ذلك إلى أمور

عدة منها أن الفكـرة القومية والشعـور بالقومية العربـية لم يكن قد تبلور بعد في العـالم العربي، ولا كانت شـعاراتها رفـعت، يضاف إلى هذا أن البـلاد العربيـة كـانت ترزح تحت الاحتـلال الأوروبي، وكان كل بلد منشـغلاً وغارقـاً فيما يعـانيه من احتـلال إنجليزي أو فرنسي، وهذا الانشغـال أخذ كل بلد بعيداً عـما يجري في البلدان المحيطة به، حتى لو تقاربت المسافات وتداخلت الحدود.

فيـما يخص مـصر، يختـلف الأمر قليـلاً وفق هذا المنحى من الفهم، فلم ينتبه شعبها وكذلك كتابها إلى الخطر الصهيوني، إلافي أعقاب ثورة ١٩١٩ حين انتهت الثورة إلى حصول مصر على نوع من الاستـقلال عن الإنجلـيز وفق تصـريح ٢٨ فبرايـر ١٩٢٢، وما ترتب عليه من صدور دستور ٢٣، بعدها بدأ المصريون ينتبهون إلى ما يجري حولهم، خاصة في فلسطين !!

على أن هناك من لا يقتنع بمسألة ثورة ١٩ ودستور ٢٣ ويمتد بالسنوات إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث حادث البراق في سنة ١٩٢٩، مع هذا الحادث أفاق المصريون وانتبهوا إلى ما يجري على أرض فلسطين .. هناك كتاب محمد علي علوبة "فلسطين والضمير الإنساني"، والذي صدرت منه عدة طبعات، ويقوم كتاب علوبة على أن حادث البراق هو الذي لفت الانتباه في مصر إلى ما يحدث في فلسطين، وفي تقديمه للكتاب يذهب الشاعر والناقد طاهر الطناحي إلى أن القضية الفلسطينية ظهرت سنة ١٩٣٠ في أعقاب حادث البراق.

حائط البراق هو جزء من المسجد الأقصى، وكان يتبع الأوقاف الإسلامية، وله درجة من التقديس لدى عموم المسلمين، فعنده وقف البراق النبوي ليلة الإسراء والمعراج ومنه عرج بالنبي في تلك الليلة إلى السموات، وكان الحائط مزاراً للمسلمين من مختلف أنحاء العالم، والمشكلة في الحائط أن له نفس الدرجة من التقديس لدى اليهود، فجزء منه عندهم هو حائط المبكى، وهو جزء من الهيكل القديم، فكانوا يزورونه ويبكون أمامه هيكلهم القديم الذي تهدم وكانت زيارة الحائط تخضع لنظام معين، سواء بالنسبة للمسلمين أو لليهود، فقد كان متاحاً لليهود زيارة الحائط وممارسة طقوسهم عنده، في أوقات معينة، وكان هناك تراضي بين المسلمين واليهود على ذلك وبدأ الخلاف حين تجاوز اليهود المهاجرين إلي فلسطين ما هو متعارف عليه بمحاولة الإقامة بعض

الوقت بجوار الحائط واعتباره ملكية خاصة بهم، كانت الفكرة الصهيونية تنتشر وتتفاعل في فلسطين، وكان تنفيذ وعد بلفور يتم على الأرض في ظل الانتداب البريطاني، كان اليهود يحققون في فلسطين كل يوم مكسباً مادياً ومعنوياً، وكانت هناك عمليات تنقيب وحفريات تتم حول القدس، يقوم بها علماء وأثريون يهود، للبحث عن بقايا وأطلال تخصهم تعود إلى التاريخ القديم، حدث هذا في ظل قلق أعيان القدس وفلسطين، وكان هناك استشعار لخطر حقيقي، حول الأماكن الإسلامية المقدسة، وتمتليء مذكرات سير رونالد ستورس[1]، حاكم القدس في ظل الانتداب البريطاني، بالكثير من الوقائع والتفصيلات التي تسجل الاندفاع الصهيوني نحو السيطرة ، حتى على المزارات المقدسة، في هذا السياق وقع حادث البراق، والذي انتقلت أصداؤه بسرعة إلى العالم العربي وإلى عموم المسلمين في العالم، وعجزت حكومة الانتداب عن أن تحل الأزمة، ورغم أن حكومة الانتداب كانت تقوم بتنفيذ وعد بلفور بهمة شديدة وتقوم بتغيير الواقع في فلسطين لصالح تأسيس الوطن القومي اليهودي، فإن رجال الوكالة اليهودية وزعماء الصهيونية كانوا يمارسون على الموظفين الإنجليز نوعاً من الابتزاز ويتهمونهم، كما يسجل ستورس بالانحياز للعرب!! وبإزاء ذلك كله تصاعدت المسألة ولم تعد

(١) ترجمها إلى العربية د. رءوف عباس بعنوان "توجهات بريطانية شرقية" وصدرت ضمن المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٥ .

مجـرد أزمة بين العـرب واليهـود في فلسطين، بل صارت مـشكلة دولية بالمعنى الكامل، وتدخلت عـصبة الأمم - الأمـم المتحدة فـيما بعـد - للفصل في تلك الأزمـة، وكـشأن الكثـير من الأزمـات تـم تشكيل "لجنة مـحـايدة" لبـحث الأزمـة، وكان مـن بين أعضـائهـا السيـاسي المصـري محـمـد علي علوبة، وكـان علوبة ذا اهتـمـام إسلامي وعروبي قـوي، وسافر أعضـاء اللجنة إلى القدس و زاروا الحائط، والتـقوا بالمسلمين وباليهود واسـتمعوا إلى وجـهة نظر كل طرف، ببساطة بحـثوا المشكلة ميدانيا وانتـهت اللجنة بعد ذلك إلى أحقية العرب في الحائط، وأقرت لليهود بحقهم في تأدية صلواتهم بجـوار الحائط في أوقـات مُعـينة يتم تحـديدها، حتى لا تقـام تلك الصلوات وقت زيارة المسلمين للحـائط. ومن خلال دوره في هذه اللجنة صار علوبة مرتبطاً بفلسطين وبالقضـية الفلسطينية، وتابعها بعد ذلـك، ولعب أدواراً مهمـة ومسـاندة، خاصـة أيام الانتفـاضة الفلسطـينيـة سنة ١٩٣٦ . وكـان مـوضع كـراهـيـة من السـفـارة الإنجليزية بالـقاهرة بسبب هذا الدور. وقـد نتصـور أن علوبة حدد حادث البراق كبداية للقضـية الفلسطينية نظراً للدور الذي لعبه هو في اللجنة الدوليـة، أو لأن الحادث انتقل من اهتـمام المتخـصصين إلى المواطن العادي ورجل الشارع.

لا يقف الأمـر عند عـلوبة باشـا ولكننا نجـدد د. عـواطف عبدالرحمن ، أستاذ الإعلام بجامعة القاهرة تأخذ بهذا الرأي ، ففي

كتاب مصر وفلسطين [1] تقول د. عواطف ".. إن الاهتمام المصري بالقضية الفلسطينية قد بدأ من المدخل الإسلامي. فقد حركت أحداث البراق ١٩٢٩ لدى الشعب المصري جماع المشاعر الوطنية والإسلامية والعربية الوليدة. "وفقاً للكاتبة نفسها، فإن الصحافة المصرية سبقت قليلاً إلى الاهتمام بهذه القضية فقد كانت "أكثر إدراكاً ووعياً بالخطر الصهيوني منذ بداية العشرينيات". أي في أعقاب ثورة ١٩، وفقاً للتفسير السابق كانت الصحافة المصرية ومعها الحركة الوطنية منشغلة بالاحتلال البريطاني، ومعنى هذا بوضوح أن ما جرى في فلسطين قبل ذلك كان خارج الاهتمام، بل خارج العلم والمعرفة، وإذا كان هذا هو حال الكتاب والصحفيين ورموز الحركة الوطنية، فكيف يكون موقف عامة الناس في مصر؟!!

ومن المهم التذكير بأن الاستيطان الصهيوني في فلسطين ظهر قبل مؤتمر بازل الشهير في سنة ١٨٩٧، وطوال القرن التاسع عشر كانت هناك مشكلة لليهود في أوربا، تعصب وعنصرية ضدهم وعداء لهم، وكانت المشكلة اليهودية مثارة وموضع جدل في الغرب عموماً، كان الاضطهاد لليهود على أشده في روسيا وعدد من بلدان أوربا الشرقية، بلغاريا وبولندا مثلاً، وبدأت الهجرات اليهودية إلى أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وكان بعض اليهود

(١) صدر الكتاب عن سلسلة "عالم المعرفة"، عدد رقم ٢٦، فبراير ١٩٨٠ .

يهاجرون إلى بلدان الدولة العثمانية ومن بينها فلسطين، وفي عام ١٨٤٠ كان هناك حوالي خمسة آلاف يهودي في فلسطين، تضاعف هذا الرقم حوالي خمس مرات - ٢٤ ألف - في أوائل عام ١٨٨٢، وفي أبريل من نفس السنة (١٨٨٢) أقيمت أول مستوطنة يهودية ذات طابع صهيوني في فلسطين وقد سقتها محاولات في ستينيات القرن، لكن لم تحقق نجاحاً كبير ولم تكن مستوطنات كبيرة، وأخذت الأفكار الصهيونية تتردد بين المهاجرين اليهود في فلسطين، وكانت الدولة العثمانية تسمح بتلك الهجرات وترحب باستغلال الأراضي غير المزروعة بفلسطين لأن ذلك في النهاية يعني زيادة دخل الدولة من الضرائب، وهكذا تضاعفت أعداد اليهود في فلسطين وكثرت الهجرات إليها. وهنا يصبح التساؤل واجباً. هل لم ينتبه الفلسطينيون أنفسهم إلى خطورة ما يجري على أراضيهم إلا مع صدور وعد بلفور، وهل ظلوا لأكثر من أربعة عقود لا يرون ولا يدركون ما يحدث حولهم وبجوار أبوابهم وحقولهم؟!

ويحتاج التفسير الذي يرصده البعض حول انشغال كل بلد بالاحتلال الذي يعانيه عما يجرى في البلدان الأخرى إلى مساءلة حقيقية.. هل وقوع بلد ما في أزمة وتعرضه لمشكلة وطنية أو احتلال ما يؤدي بالضرورة إلى عدم التفات أبناء هذا البلد وغياب وعيهم عما يجري حولهم ولدى جيرانهم، فضلاً عن أن تكون

هناك جوانب حضارية وثقافية مشتركة تجمعهم بهؤلاء الجيران؟ الخبرة التاريخية هنا تجيب بالنفي، في المنطقة العربية وفي غيرها من البلدان، حين غزا نابليون مصر، لم تكن بلدان المنطقة في أفضل حالاتها، بل كانت في أسوأ ظروفها وأحوالها ومع ذلك وجدنا فرقاً من المجاهدين والمتطوعين تأتي من اليمن والجزيرة العربية، ويعبرون البحر الأحمر إلى صعيد مصر ليشاركوا في مقاومة الجيش الفرنسي الذي انطلق إلى الصعيد بقيادة الجنرال ديزيه.

وكانت مصر تحت الاحتلال البريطاني، ولم يحل ذلك دون متابعة الغزو الإيطالي في ليبيا والتعاطف مع عمر المختار وجمع التبرعات، بل وعبور بعض المجاهدين الحدود إلى ليبيا عبر الصحراء للمشاركة في عمليات المقاومة، وكانت مصر تحت الاحتلال ولم يمنع هذا من متابعة ما يجرى في الجزائر وما يقوم به الاستعمار الفرنسي هناك، وحين قامت ثورة ١٩ في مصر تابعها بحماس شديد العرب في المغرب والمشرق، وصار سعد زغلول شخصية أسطورية لدى عدد كبير من العرب .. وعلى مستوى الكتاب والشعراء لدينا قصائد أحمد شوقي في التنديد بما قام به الفرنسيون في سوريا ولدينا قصيدة نازك الملائكة في وباء الكوليرا الذي عرفته مصر في الأربعينيات من القرن العشرين، وفي شتاء ٢٠٠٣، حين اندفعت القوات الأمريكية لغزو العراق واحتلاله ، فإن الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، رغم وقوعهم تحت

الاحتلال الإسرائيلي، قاموا بالمظاهرات ضد الغزو الأمريكي وتابعوا ما يجري في العراق، وكانوا الأكثر حماساً لمساندة العراق، ويدهش المرء من التعلل بمسألة الاحتلال أو عدم تبلور المشاعر القومية، إذ تكشف كتب المؤرخين في المشرق العربي، أيام انهيار الأندلس، عن متابعة دقيقة في هذه البلدان لما يجري على الناحية الأخرى من المتوسط، وكانت الأنباء ترى ويتابعها العلماء والفقهاء وكذلك عموم الناس، كان ذلك في القرن الخامس عشر.. ونفس الأمر سوف نجده أيام اجتياح التتار لبغداد فهل يعقل أنه كان ممكناً الوعي والإدراك والمتابعة لدى شعوب المنطقة ولدى العلماء والفقهاء والمؤرخين- المثقفين - وقتها ولا يتيسر ذلك في القرن التاسع عشر، حيث طرق الاتصال أسرع وأحدث ! !

وفلسطين هي البلد الأقرب إلى مصر، وربما كانت المسافة من العريش في سيناء إلى القدس وحيفا ويافا وعكا والخليل، أقرب منها إلى أسيوط ونجع حمادي وكوم امبو وأسوان في جنوب مصر، وهناك علاقات واتصالات بين البلدين منذ العصر الفرعوني، وطوال العصر الإسلامي لم تنقطع الصلات بين القاهرة وغيرها من مدن فلسطين، وكثيراً ما جمعتها معاً دولة ونظام حكم واحد، أيام الدولة الأيوبية وقبلها الفاطمية ثم دولة المماليك، ظلت العلاقات والاتصالات كما هي، والواقع أن الدولة الوطنية بالمعنى الذي نعرفه ونعايشه اليوم لم تكن معالمها اكتملت خلال القرن التاسع عشر، صحيح أن مصر حصلت مع اتفاقية ١٨٤٠ على قدر

من التميز والاستقلال عن الدولة العثمانية، وتحول حكمها إلى محمد علي وأولاده من بعده بالميراث، لكن بقيت مصر خاضعة أسمياً للدولة العثمانية، فالوا لي أو الخديو لا يتولى الحكم رسمياً إلا إذا جاءه الفرمان العتماني بذلك من قصر يلدز، حيث الخليفة في استانبول ولا يعزل إلا بفرمان سلطاني ولا يمكن لمصر توقيع معاهدة أو اتفاقية دولية دون الرجوع إلى مقر الخلافة وموافقة الخلفة، ولأن دولة واحدة كانت تجمع بلاد المنطقة، كانت العلاقات والاتصالات بين الشعوب أيسر وأسهل مما هي اليوم، لم يكن هناك جواز سفر ولا تأشيرة دخول أو خروج وتحريات أمينة وتساؤلات حول دوافع الخروج وأهداف الدخول، كانت الرحلات تروح وتجيء وكان الأفراد يتحركون ويتنقلون بحرية تامة يعملون ويقيمون بلا أي مشكلة، من المغرب إلى الجزيرة العربية إلى بلاد الشام الواحد.. وهكذا كان الانتقال من القاهرة إلى القدس وحيفا ويافا وبيروت وصيدا ودمشق وحلب كالانتقال من القاهرة إلى الإسكندرية أو أسيوط وسوهاج، لم يكن ضرورياً وجود "كفيل" أو تصريح سفر للانتقال والتحرك. ويدهش المرء من حجم التعاملات بين المدن المصرية والفلسطينية، خاصة الساحلية منها، تبادل اقتصادي وتجاري، وعلاقات اقتصادية يومية تقريباً، وعلاقات إنسانية ومصاهرات ممتدة هنا وهناك، وحتى وقت قريب كنا نسمع في السوق عبارات بالغة الدلالة، فالنداء على المشمش بأنه حموي، نسبة إلى حماة في الشام والبرتقال اليافاوي نسبة إلى

يافا وغيرها وغيرها. وفوق هذا كله لا يمكن أن ننسى وجود الأزهر، وهو المؤسسة التعليمية (الجامعة) الأكبر آنذاك، وكان يستوعب الكثير من الطلاب العرب والمسلمين من مختلف أنحاء العالم، خاصة أبناء المنطقة العربية وفيهم الطلاب والدارسين من فلسطين وأتاحت أروقته الاتصال الدائم بين الطلاب من العالم الإسلامي والتعرف الدقيق على ما يجري هنا وهناك، ولعل الرصد الذي قدمه الجبرتي لطلاب غزة الذين جاءوا إلى الأزهر بهدف اغتيال الجنرال كليبر سنة ١٨٠٠، تكشف كيف أتاحت حياة المجاورين والمشايخ في الأزهر متابعةً ووعْياًو مشاركةً في الكثير مما يحدث. ولذا فإن القول بأن ما جرى في فلسطين في القرن التاسع عشر، كان خافياً على المثقفين العرب والمصريين فيه قدر من التهوين.

ولم تكن مصر بعيدة عن المشروع الصهيوني، فقد كانت في مرماه، حتى قبل أن يتبلور ويكتمل، والواقع أن شبه جزيرة سيناء كانت تداعب خيال قطاع واسع من اليهود عبر التاريخ، ففيها وعند جبل الطور كلَّم الله نبيه موسى، وكانت سيناء طريق خروج اليهود من مصر في العصر الفرعوني، وهكذا، قبل ظهور الصهيونية، كانت سيناء لأسباب دينية وعقائدية تجتذب اليهود، وكان بعضهم يهاجر إليها، ولعل هذا ما دعا سليم الأول أن يصدر فرماناً، في عام ١٥١٧، فور دخوله مصر يمنع هجرة اليهود إلى

سيناء، وجدد ابنه السلطان سليمان القانوني هذا الفرمان في عام ١٥٢٠، وتكرر هذا الفرمان فيما بعد وتكررت هجرات اليهود إلى سيناء بهدف إقامة قاعدة استيطانية وتجمع سكاني بها يكون وطناً لليهود، وتم إجهاض هذه المحاولات، وكانت آخرها مشروع "بول فريد مان" بين عامي ١٨٩١ و ١٨٩٢ [١]. ثم وصلنا إلى المشروع الصهيوني مع هرتزل لاستيطان اليهود في سيناء ،كان هرتزل يسعى لإقامة مستوطنة في جزء من سيناء، ووقع اختياره على العريش لتكون مدخلا بعد ذلك إلى فلسطين، وبدأ هرتزل في إجراء اتصالات في عام ١٨٩٨ مع عدد من المسئولين الإنجليز، وخاصة وزير المستعمرات تشمبرلين ووزير الخارجية اللورد لاندون، ووافق الوزيران على مشروع هرتزل، بإقامة دولة يهودية في سيناء تتمتع بالحكم الذاتي وتحت رعاية الأمبراطورية البريطانية، وكان الاستيطان سيبدأ من العريش، ولم يكن ترحيب الوزيرين البريطانيين كافياً، تشمبرلن نفسه قال لهرتزل لابد من مراجعة كرومر في هذا الأمر، وأرسلت المنظمة الصهيونية مندوباً إلى مصر وتم بحث الأمر مع لورد كرومر المعتمد البريطاني ومع بطرس غالي ناظر الخارجية، وجاءت لجنة من الخبراء الصهاينة لاستكشاف سيناء وتم إعداد تقرير بذلك، وكان المشروع الصهيوني يقوم على توصيل مياه النيل إلى سيناء، وبعد مباحثات

(١) حول هذه المحاورات والمشاريع .. راجع "سيناء في التاريخ الحديث" د صبري العدل، الناشر مركزه تاريخ مصر المعاصر. دار الكتب والوثائق القومية، سنة ٢٠٠٤ .

مطولة ومفاوضات تم رفض المشروع كلية، وكان الرفض واضحاً من الحكومة المصرية، في خطاب بتاريخ ٢٢ فبراير ١٩٠٣ يحمل توقيع بطرس باشا غالي ناظر الخارجية إلى "جرينبرج" مندوب هرتزل والمنظمة .. "أن حكومة صاحب السمو الخديو أخذت علماً باقتراحاتكم بشأن الحصول على امتياز لإنشاء شركة تقوم باستيطان اليهود في شبة جزيرة سيناء، إلا أن الحكومة المصرية لا تستطيع وفقاً للفرمانات الشاهانية لأي سبب أو بد - التنازل عن جزء أو كل من الحقوق المتعلقة بالسيادة ولذا فإنه يجب أن تستبعد بصفة قاطعة كل فكرة ترمى إلى الحصول على اتفاقات من هذا النوع". وجاء هيرتزل بنفسه إلي القاهرة متصوراً أنه سوف يقنع الحكومة المصرية بالمشروع، والتقى مع كرومر ومع بطرس باشا غالي، وفشل في مسعاه فاضطر إلى مغادرة القاهرة في ٤ أبريل ١٩٠٣ وفشل المشروع نهائياً، والحقيقة أن كرومر لم يكن مرحباً بذلك المشروع، فقبل حوالي ١٠ سنوات، تحديداً في العام ١٨٩٢ آثار مشكلة مع الدولة العثمانية، حول طابا، رافضاً أن تستولى الدولة العلية علي هذه البقعة وتضمها إلى أملاكها، ولو فتح الباب لهيرتزل فسوف يواجه بصعوبات حقيقية لذا نراه يدافع عن رفض الحكومة المصرية للمشروع، وفي تقرير رفعه إلى وزير خارجية بريطانيا في ١٤ مايو ١٩٠٣ يقول إن معارضة الحكومة المصرية للمشروع "لا ترجع إلى شعور معاد لليهود ولكن لأسباب أخرى عملية أهمها أنه مشروع غير قابل للتنفيذ"(١).

(١) راجع التفاصيل كاملة في كتاب د. صبري العدل" سيناء في التاريخ الحديث" .

والمعنى في كـل هذا أن مـصـر لم تكن بعــيـدة عن المشــروع الصـهـيوني، وأن الدولة المـصرية كـانت على علم بهـذا المشـروع وأحـلام القـائمـين عليـه، تضـاف إلى ذلك أن هـناك جـمـاعـات صهيـونية ظهرت في مصر، آنذاك، وكانت تضم أعـداداً من اليهود الذين هاجـروا إلى مصر فـي أواخر القرن الـتاسع عشـر، هربا من الاضطهـاد في أوربا الشـرقـيـة، وجـاء هؤلاء مـحـملين بعـقـدة الاضطهاد وبالمشــروع الصهيـوني وأحلامه، وأصـدروا منشورات ومطبـوعات خـاصـة بهم، تحمل شـعـاراتهم وتعـبر عنهم، وكـان معظمها باللغـة الفرنسية[1]. ولذا فمن الصعب القبول بأنه لـم يكن هناك انتباه أو وعي بما يجري إلا بعد ثورة ١٩١٩ .

هذا الكتـاب مـحاولة قـراءة وبحث في الصـحف والمجـلات المصـرية، خلال سـنوات القرن التـاسع عـشر الأخـيـرة والسنوات الأولى من القرن العـشرين، ومراجـعة مقـالات الكتاب والمفكرين العـرب والقـصد هو الوصـول إلى مـدى علم ومـعـرفـة الكتـاب العرب آنذاك بالمشــروع الصهيوني في فلسطين وكـيف تـم التعامل مع تلك الظاهرة "الصـهيـونية"، خـاصة حين عـقد مـؤتمر بازل في ١٨٩٧ والذي يعد المؤتمر التأسيسي لإسرائيل.

والواقع أنني حين بدأت عـمليـة البحث تلقـيت نصـيحـة من

(١) لم تكن الصهـيونية آنذاك مـصدر خوف أو قلق، لذا سـمح لها بتأسـيس الجمعـيات، المنتديات .. مثلها مثل الماسونية وغيرها، وكان وجودها عاديا ،مقبولا

مؤرخ كبير ومن ناقد منهم بأن أتجنب هذه المنطقة لسببين.. الأول أنه لم يكتب عن الصهيونية مبكراً سوى الكاتب اللبناني نجيب عازوري، كتابه الذي صدر بالفرنسية في باريس سنة ١٩٠٥ بعنوان "يقظة الأمة العربية في آسيا التركية "والذي تحدث فيه عن "جهد اليهود الخفي لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع" وقال إن هذا الجهد سوف يصطدم مع يقظة الأمة العربية، باختصار هناك صراع قادم بين القومية العربية والفكرة الصهيونية أو القومية اليهودية.. واعتبر عازوري في الأدبيات العربية أنه "أول من كشف الخطر الصهيوني ليس على فلسطين والعرب بل دبج البيانات والمقالات والكتب موضحاً خطر الصهيونية وإنشاء إسرائيل على العالم(١). والواقع أن كتاب عازوري لم يقرأ في العالم العربي، صدر في باريس وظهر مترجما إلي العربية في بيروت في السبعينيات من القرن العشرين، وحين ظهرت ترجمته كان قد أصبح كتابا في ذمة التاريخ، لذا لم يستقبل باهتمام من المهتمين والمتخصصين.. السبب الثاني: أنه إذا كان هناك مَنْ كتب في الصحف، فلن أجد إلا العطف على الصهيونية والتعاطف معها، والدليل على ذلك أن مطبوعات صهيونية كانت تصدر في تلك الفترة، صحيح أنها بغير العربية وكانت توزع فيما بين تجمعات الصهاينة فقط، وليس حتى بين عموم اليهود في مصر. وإذا كان قد سمح بهذه المطبوعات، فلابد من تعاطف وإن كان محدوداً وإعجاب وإن كان خفياً!!

(١) د. أحمد أبو ملحم في "دراسات عربية" عدد ديسمبر ١٩٧٩ .

والواقع غير ذلك بالمرة، لقد عالجت الصحافة المصرية مبكراً القضية الفلسطينية، حتى قبل أن تحمل ذلك المصطلح، عولجت بالخبر والتقرير وقبل كل ذلك وبعده المقال، فقد كان المقال هو العنصر الغالب على صحف ذلك الزمان، ومن يراجع مجلة المنار ومجلة الهلال وصحف مثل المؤيد والمقطم والأهرام سوف يكتشف انتباهاً مبكراً ومتابعة جيدة لما يجري على أرض فلسطين، بل إننا نجد صحيفة مثل "أبو الهول" كانت معظم صفحاتها متخصصة في الشأن الفلسطيني، سواء عن المهاجرين اليهود أو استبداد وتسلط وأيضاً فساد الولاة ورجال الحكم هناك. وقد شغلت قضية الصهيونية وحلم إسرائيل عدداً من كبار المفكرين والكتاب العرب بمختلف مواقفهم الفكرية وانتمائهم السياسي ويمكن أن نذكر هنا رشيد رضا و جورجي زيدان وشكيب أرسلان وشبلي شميل، هؤلاء الأربعة شغلوا بهذا الأمر وقدموا فيه آراءهم وطرحوا كافة الأسئلة، حول مستقبل الصهيونية وإسرائيل ومستقبل الهجرات اليهودية والمستوطنات الصهيونية في فلسطين، ولم يكن هؤلاء الأربعة فقط، بل هناك آخرون غيرهم، ومع هؤلاء يصبح الحكم بأن نجيب عازوري كان أول من حذر واستشعر الخطر بحاجة إلى مراجعة جذرية، فمنذ منتصف التسعينيات في القرن التاسع عشر، كانت التحذيرات قد بدأت عبر الصحف العربية وبأقلام كتاب لا يستهان بهم، كان هؤلاء الكتاب ينشرون مقالاتهم ويعلنون أفكارهم وكان الكتاب الإسرائيليون. - هكذا

كانوا يسمون أنفسهم منذ ذلك الوقت- يردون عليهم، وحدثت سجالات وجدل طويل وممتد، ولم يكن الكتاب "الإسرائيليون" يخفون هدفهم وطموحهم وهو السيطرة على فلسطين "أرض الميعاد" في ظل الدولة العلية، وكان مطلبهم أن تكون فلسطين مفتوحة أمام يهود العالم، أما العرب، سكان فلسطين، وفقاً لهؤلاء الكتاب فيمكنهم الذهاب إلى البلدان المجاورة، ولم يفت هؤلاء أن يلوّحوا بما لدى يهود العالم من أموال وإمكانيات ونفوذ، لم يكن الكتاب الإسرائيليون، يتحدثون عن أحلام وطموحات فقط، بل تحدثوا أيضاً عن خطط قابلة للتنفيذ وتفاصيل كثيرة، لم تكن الخطط سرية، كانت معلنة على بعض الصفحات وكانت تنفذ فعلياً على الأرض. كان كل شيء في العلن لا شيء في السر والخفاء ولا أمر يتم في الظلام، أهداف وخطط معلنة والسعي للتنفيذ معلناً أيضاً، ومن يعود إلى صحف ذلك الزمان، سوف يجد متابعة وافية لما يجري، بمختلف أدوات وأشكال المتابعة!!

يلفت الانتباه أن الأفكار والآراء التي رددها الكتاب العرب آنذاك، تشبه الكثير مما يتردد إلى اليوم بين المثقفين والكتاب العرب، بكل أطيافهم، كان هناك مَنْ طالب بضرورة التصدّي للهجرة الصهيونية إلى فلسطين ومنعها نهائياً، وكان هناك من أراد فتح أبواب فلسطين أمامهم على مصراعيها والترحيب بهم، ومنحهم كافة التسهيلات والامتيازات، فلديهم المال الوفير والعلم الحديث والآلات المتقدمة وغير ذلك. ثم كان هناك من توسط بين الموقفين

بدرجة اقتراب وميل هنا أو هناك.. قد تختلف الأسماء والمصطلحات بين كتاب نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكتاب اليوم، ولكن جوهر الأفكار والمواقف كما هي وإن كانت أكثر وضوحاً من قبل وأيضاً أكثر جرأة وجسارة.

لقد كتب الكتاب ونشرت الصحف منذ وقت مبكر جداً، صرخة جورجي زيدان بعد رحلة قام بها إلى فلسطين أن الأمور لو تركت على ما هي عليه فسوف تضيع فلسطين نهائياً خلال عدة عقود، وألح رشيد رضا على ضرورة التفاهم مع المهاجرين الجدد إلى فلسطين أو الحد من هجرتهم.. لكن لم يحدث أي شيء من الجانب العربي، ولم تؤخذ التحذيرات، فيما يبدو، على محمل الجد، والذي حدث أن المسئولين والحكام "أولى الأمر" لم يتخذوا أي موقف، فلاهم منعوا الهجرة الصهيونية إلى فلسطين ولاهم رحبوا بالقادمين، وهكذا كان بينهم من تغاضي أو تناسى أو هوّن من الأمر وكان هناك من تواطأ وارتشى، وكان أن تضاعف عدد المستوطنات وتضاعفت أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، أما الأهالي فكانوا يرون ويرقبون من اللحظة الأولى، ومن المهم التذكير بأن أولى الأراضي التي امتلكها المهاجرين لم تكن من ممتلكات الأفراد، بل من الأراضي المملوكة للدولة وكانوا يحصلون عليها من خلال ولاة الأقاليم والمسئولين الحكوميين بها.

ولعل أول رد فعل ضد المستعمرات اليهودية في فلسطين كان مبكرا جدا وجاء من الأهالي أنفسهم في فلسطين، فقد أرسل الوجهاء العرب في القدس برقية إلي الصدر الأعظم في عاصمة الدولة العلية، حملت البرقية تاريخ ٢٤ يونية (حزيران) من العام ١٨٩١، كانت البرقية احتجاجا علي هجرة اليهود الروس إلي فلسطين وتطالب بمنعهم من تملك الأرض بها، وتتحدث بعض المصادر عن نشوب بعض الصدامات بين الفلاحين الفلسطينين والقادمين الجدد، كانت الموجة الأولي من المهاجرين تنتمي إلي جماعة "أحباء صهيون" وقد انتشرت الشائعات في فلسطين أن هناك موجة أخري من المهاجرين الروس في الطريق.

ولعل هذه الشائعات هي التي حركت الأعيان للاحتجاج لدى الصدر الأعظم، خاصة أن الشائعات أكدت أن الدولة العلية قد سمحت للقادمين الجدد بدخول فلسطين وأباحت لهم حق التملك، وعموما فإن الاحتجاج لم يؤد إلي نتيجة في الواقع وعلي الأرض، فقد ظلت الهجرات تصل إلي فلسطين وبمعدلات أكثر، وتواصل إقامة المستعمرات وتواصلت احتجاجات الأهالي.

وفي عام ١٨٩٩، بعد عامين من مؤتمر بازل نجد خطوة أخرى قام بها أحد أعيان فلسطين، هو يوسف ضياء الخالدي، مقدسي ينتمي إلي عائلة تعود إلي القائد الإسلامي الفذ خالد بن الوليد، الذي لقبه نبي الإسلام سيف الإسلام شغل الخالدي عدة مواقع في

الدولة العثمانية فكان من قبل رئيسا لبلدية القدس - البرلمان العثماني الأول - وتولى موقع سفير الدولة العلية بالنمسا، وكان مقيما في استانبول وقت انعقاد مؤتمر بازل، وشهد زيارة قيصر ألمانيا إلي استانبول وهي الزيارة التي طرح فيها القيصر علي السلطان العثماني المسألة اليهودية، وكان الخالدي محيطا بما جرى في تلك الزيارة وأطلع علي ما دار فيها، فلم يكن ممكنا أن يتم تناول تلك المسألة دون الرجوع إلي رجل فلسطين والقدس في العاصمة.

باختصار كان الخالدي ملما ومطلعا علي المسألة اليهودية وعلي مشروع هرتزل والمشروع الصهيوني عموما، وفي أول مارس ١٨٩٩ كتب الخالدي رسالة إلي هرتزل، حملها إليه رئيس الطائفة اليهودية في فرنسا "صادوق كاهان"، كانت الرسالة بالفرنسية وكان صادوق علي صلة بالطرفين.

وطبقا للدكتور عادل مناع [١] فإن الخالدي عبر في رسالته عن مشاعر التقدير والمودة تجاه اليهود، والتعاطف معهم، وأقر فيها بالحق التاريخي لليهود في فلسطين وبإمكان عودتهم للعين فيها ثانية، واعتبر الصهيونية فكرة .. طبيعية وعادلة، ولكن مصير الأمم ومستقبل الأوطان لا يتحقق بالمفاهيم والمصطلحات المجردة والمثالية

(١) باحث فلسطيني نال الدكتوراة من الجامعة العبرية بالقدس حول تاريخ فلسطين في العصر العثماني وترد الواقعة في كتابه "تاريخ فلسطين في أواخر العصر العثماني"، الناشر : مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

أو الحقوق التاريخية، ذلك أن فلسطين آهلة بالسكان العرب وهم من المسلمين والمسيحيين ومن ثم فلا مجال لتحقيق المشروع الصهيوني، إلا إذا كان المقصود والهدف محاولة الاستيلاء عليها بالقوة، ولو حدث ذلك فإن رد الفعل سيكون عدائيا تجاه اليهود في فلسطين، فضلا عن يهود الدولة العثمانية كلها .. وإذا تقرر تحقيق المشروع بالقوة أو ما يسميه هو "بالحرب والمدافع" فإن هناك صعوبات أعمق، ذلك أن الحرب والمدافع في مقدور كل من بريطانيا وأمريكا، ولا نعرف لماذا اختار أمريكا يستشهد بها، كانت بريطانيا قوة عسكرية عظمى، لكن أمريكا لم تكن آنذاك قوة عسكرية، ولن تقوم بريطانيا أو أمريكا بالحرب، كما يتصور الخالدي في رسالته، فهل يقوم بها ١٠ مليون يهودي، ضد ٣٠٠ مليون مسلم و٣٩٠ مليون مسيحي هكذا تساءل، ويقترح الخالدي علي هرتزل أن تتوقف الصهيونية عن محاولة تحقيق مشروعها بالمعنى الجغرافي وأن تترك فلسطين "بحق الله بسلام".

الخالدي ومن ثم أعيان فلسطين وأيضا الدولة العلية، كانوا علي علم بالمشروع الصهيوني والمطامع في فلسطين، وهو لا يعترض علي الفكرة الصهيونية ولا علي المشروع، هو يعترض فقط عي أن ينفذ ذلك المشروع علي أرض فلسطين. أثبتت الأيام عدم صحة تصور الخالدي عن أن الفكرة والمشروع سوف يكون مشروعا يهوديا في مواجهة المسلمين والمسيحيين في العالم فقد ثبت أن الصهيونية مشروعا استيطاني مسلح بكل الأدوات

والوسائل، وتدخلت بريطانيا ثم أمريكا لدعمه ولم يقف ضده المسلمون والمسيحيون، كما تصور الخالدي، لو حدث ذلك بالفعل، ربما لم تقم إسرائيل من البداية ولما اتسعت علي هذا النحو!!

وفي ١٩ مارس يقوم هرتزل بالرد علي رسالة الخالدي، والرد كان ودوداً أو لنقل غير عدائي ولكنه يحمل إصرارا علي الفكرة وعلي المشروع الصهيوني، حملت الرسالة - الرد - تقريرا للود تجاه الشعب اليهودي، الذي حملته رسالة الخالدي ولم يجد هرتزل مفاجأة في ذلك، فاليهود هم أفضل أصدقاء الأتراك، منذ أيام السلطان سليم، حين طرد اليهود من بلاد الأندلس، ففتحت لهم السلطنة العثمانية أبواب بلادها، فعاشوا فيها بسلام وأمان، ومن هذه المقدمة ينطلق هرتزل إلي القول بأن المشروع الصهيوني لا يحمل أي ضرر للدولة العثمانية، بل العكس هو الصحيح ..

كيف؟

يشرح هرتزل المسألة كالتالي .. هجرة اليهود إلي فلسطين تعني "جلب الموهبة والمبادرةوالإمكانيات المالية" ومن ثم فإن هذه الميزات سوف تحسن أوضاع المنطقة كلها، وليس فلسطين وحدها ويرى أنه لا أساس للخوف من هجرة اليهود إلي فلسطين، لعدة أسباب أهمها أن اليهود لا قدرة لهم علي الحرب، كما لاحظ الخالدي، وهم لا يريدون الحرب، غايتهم فقط العيش بهدوء وأمان وسلام، ولا أحد يفكر في إبعاد أهالي فلسطين، عن بلادهم

وديارهم - حدث العكس فيما بعد ويحدث حتى هذه الأيام - وفضلا عن ذلك فإن هجرة اليهود إلي فلسطين وشراء الأراضي سوف يؤدي إلي ارتفاع سعر الأرض إلي خمسة أو عشرة أضعاف ثمنها، وهذا لصالح الأهالي ..

وتأسيسا علي هذا يري هرتزل أن أصدقاء تركيا - الدولة العثمانية - يجب أن يكونوا أصدقاء للصهيونية..

نلاحظ أن الأفكار والآراء التي وردت في رسالة هرتزل، سوف تتردد لدى الكتاب الإسرائيليين في الصحافة العربية وفي ردودهم علي الكتاب العرب الذين ينتقدون الصهيونية وهجراتها إلي فلسطين، أما أقواله عن "الموهبة والمبادرة والامكانيات المالية" التي ستحل علي المنطقة فما تزال تردد إلي اليوم، قال بها شيمون بيريز وغيره للحث علي "التطبيع" في المنطقة، ويقول بها بعض المعجبين بإسرائيل من الكتاب العرب هنا وهناك.

آخر ما حملته رسالة هرتزل أو رده علي الخالدي، ما يتعلق بأن يبحث اليهود لهم عن بلد آخر غير فلسطين بها جرون إليه، هو يعد أنهم سيفعلون ذلك "فإننا سنفتش، وصدقني إننا سنجد في مكان آخر ما نصبوا إليه .." والمعني أن الفكرة باقية والمشروع سوف يتحقق ويستمر، حتي لو كان علي أرض غير فلسطين، والواقع أن كلمة "سنفتش" لم تكن دقيقة تماما، فقد كان أوان التفتيش، كانت الحركة الصهيونية قد فتشت من قبل، في أمريكا

اللاتينية وفي أفريقيا وفي آسيا، وتحديدا في شبه جزيرة سيناء المصرية، كان التفكير الصهيوني قد أوشك علي أن يستقر حول فلسطين بإعتبارها أرض الميعاد والوطن القومي القادم.

عموما فإن وضع الخالدي في الدولة العثمانية، تجعلنا نتفق مع استنتاج د. مناع عن أن الخالدي لم يتخذ تلك خطوة بالاتصال بهرتزل منفردا ودون الرجوع إلي الدولة، إن لم يكن مكلفا من قبل السلطان بذلك، ولعل الآراء التي طرحها في رسالته والأفكار التي قدمها، لم تكن أفكاره وحده، بل هي بمعنى ما تعبر عن أفكار وآراء الدولة والسلطان، في المسألة الصهيونية والهجرة إلي فلسطين ، ويبدو أن هرتزل كان مدركا أو متوقعا ذلك، فأشاد في رسالته بالدولة العلية وأظهر الود نحوها، وحرص علي أن يؤكد علي أن الصهيونية ليست مشروعا عدائيا ضد الدولة ولا مقصود منه المساس بها، وأن هناك صلة تاريخية ودية بين اليهود والدولة العثمانية، والمقصود هو طمأنة الدولة والسلطان وكسب الود والتعاطف.

الرسالة والرد عليها، يمكن أن تُوضَعا في خانة الاتصالات السرية عبر قنوات غير مباشرة، ولذا فإن هذه الخطوة ظلت في نطاق السرية، لم يعلن عنها، ولم تصل أصداؤها إلي الرأي العام، فلم يكن ممكنافي ظل قلق الأهالي أن يصلهم قول الخالدي أن الصهيونية فكرة طبيعية وعادلة وأن لليهود حق تاريخي في فلسطين وأنه يمكن لهم العودة إليها ! !

ويبدو أنه قدر الفلسطينين والعرب عموما أن يقول حكامهم أو رجال دولهم في الغرف المغلقة وفي القنوات والاتصالات السرية أفكاراً تناقض ما يطرحونه علي مواطنيهم، أصحاب المشكلة والطرف الأول فيها.

وحين لم يجد الأهال استجابة من الصدر الأعظم ولا تحركا فعليا من الدولة العلية ولجأوا إلي الصحف يشكون إليها، لعل وعسى.

لم تكن الحكومات آنذاك، وربما إلى اليوم، تأبه بشكاوى الأهالي ومشاكلهم، ويبدو أيضاً أن المسئولين تعاملوا مع تلك الشكاوى المنشورة بمنطق أنه "كلام جرايد" وهي مقولة يرددها المسئولون ويروجونها للتهوين مما ينشر أو التسخيف منه، وفي العموم عدم التعامل معه على محمل الجدية.. وبالفعل ما ينشر يظل " كلام جرايد" بالمعنى السلبي ما لم يكن هناك رأي عام قوي وضاغط يجبر صناع القرار والمسئولين على التعامل بجدية وبمسئولية مع ما ينشر من قضايا ومشاكل، وهناك الكثير مما يمكن أن يقال ويحكي في هذا الجانب. والذي حدث في المسألة الصهيونية على أرض فلسطين أن الكتاب حذروا ونبهوا، لكن الفعل على الأرض والتحرك كان يقوم به الصهاينة، وفي كل عام كانوا يكتسبون موقعاً وأرضاً جديدة، يقيمون عليها المزارع والمشاغل والمصانع، وتجنبوا الأهالي في البداية، لكن مع اتساع

المزارع والأراضي وازدياد القوة والنفوذ كان لابد أن يحدث الاحتكاك والشجار ثم الصراع . كان المهاجرون يعرفون هدفهم ويرسمون خطواتهم، وما لم يحصلوا عليه في عام يتم تأجيله إلى عام قادم، كانت الهجرة ممنوعة في القدس وتحديداً حول المسجد الأقصى في بداية الأمر، فانتشروا في المدن الفلسطينية الأخرى وفي القرى إلى أن أمكنهم في النهاية الاستيلاء على القدس كلها وفي القلب منها المسجد الأقصى، استغرق الأمر عشرات السنوات، وحتى حينما اتجه أهالي فلسطين إلي الثورة في حادث البراق وفي عام ١٩٣٦، كانت الأطراف الدولية تحديدا بريطانيا وعصبة الأمم، عبر نفر من وجهاء المنطقة، يتواطئون عليهم، وتتحقق المكاسب للطرف الآخر. ووصلنا إلى ما نحن فيه اليوم، معظم مطالب إسرائيل تحققت وتم الاستجابة لها، ولم يقم للفلسطينيين حتى دولة صغيرة على جزء من أرضهم، فضلا عن الإبادة المنظمة التي تقع عليهم يومياً وأمام أنظار العالم كله!!

وصفحات هذا الكتاب محاولة للبحث في جذور ما يجري لنا وحولنا ومحاولة للفهم وليس مقصوداً به إدانة أحد بعينه ولا الدفاع عن أحد، هو محاولة لتنشيط ذاكرتنا بما كان وما صارت إليه الأحوال.. كما لا يهدف إلى إثارة جراح وآلام قديمة، وإن كانت الجراح لم تندمل بعد، بل تزداد عمقاً واتساعاً عاماً بعد عام، والآلام تبرح يوماً بعد يوم، محاولة للتذكرة لعلها تحرك ساكناً وتدفع الفعل والعمل بدلا من الألم الصامت دائماً والصارخ أحياناً.

وقد يرى البعض أن الأسماء التي تم تناولها في هذا الكتاب (رشيد رضا وجورجي زيدان وشكيب أرسلان وشبلي شميل) هم في نهاية الأمر كتاب وأدباء لديهم نزوع نحو الصلاح ومواجهة التدخل الصهيوني في فلسطين، وإن اختلفت طرق وأساليب المواجهة ، لكنهم في النهاية لا تنطبق عليهم صفة "المفكر"، ذلك أن المفكر في أحد تعريفاته هو من يقدم رؤيا جديدة للعالم أو فهما جديدا أو نظرية جديدة في أحد جوانب الحياة الإنسانية، وهو ما لا ينطبق على أي من الأسماء الأربعة.

والواقع أن صفة "المفكر" تستعمل في ثقافتنا العربية المعاصرة بالمعنى المجازي دون الالتزام بمقتضيات التعريفات الدقيقة وهكذا فإننا نطلق صفة المفكر على د. زكي نجيب محمود و د. فؤاد زكريا ود. الطيب تزيني ود.عابد الجابري وغيرهم، التفرقة الوحيدة التي نقوم بها أن بعضنا يستعمل مصطلح "المفكر الكبير" لبعض الأسماء و "المفكر" فقط لأسماء أخرى وهي تفرقة يحكمها معيار الميل والهوى الشخصي لمن يستعملها تجاه من يتحدث أو يكتب عنهم!

وربما لعب الطابع الموسوعي في الثقافة العربية والإسلامية لعدد من كتابها ورموزها دورا في عدم الوقوف أمام التعريفات الدقيقة والتفرقة بين الكاتب والأديب والباحث والمفكر، ففي أي خانة من تلك يمكننا أن نضع أبو حامد الغزالي وابن سينا والجاحظ

وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء المعري وغيرهم، لكن الثقافة العربية والإسلامية فرقت بدقة بين من يكون كاتبا ومن لا يكون ومن يعد شاعرا أو يصبح "متشاعرا" وتفرق الثقافة العربية المعاصرة بين الروائي والمسرحي والشاعر، لكن لم يتم بعد تحديد المصطلح والفارق الدقيق بين الكاتب عموما والمفكر والباحث، ولذا يحدث خلط ويتم تسمية البعض "مفكر" مجازيا.

والكتاب أخيراً تحية إلى كتاب وأقلام أخلصت وقامت بدورها في الرصد والتنبيه والتحذير والنصح وإن تكاسل الآخرون عن أداء دورهم وعجزوا عن تحمل مسئولياتهم.

حلمي النمنم

الفصل

الأول

1

فلسطين .. المسألة اليهودية

وظهور الصهيونية

تساءلت "جولدا مائير" رئيسة وزراء إسرائيل يوماً .. أين هو الشعب الفلسطيني؟، كان ذلك بعد هزيمة الجيوش العربية في يونية ١٩٦٧، كانت مائير تحاول بذلك إنكار وجود الشعب الفلسطيني، ومن ثم لا تكون له أي حقوق، وكان قولها هذا يلتقي مع تصريح سابق لأحد زعماء الصهيونية "فلسطين أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض .."والقصد أن يذهب ذلك الشعب - الشعب اليهودي-إلى تلك الأرض، وإذا كان هناك من أنكر وجود شعب فلسطين، فإنّ المستشرق الأمريكي برنارد لويس، القريب إلى البيت الأبيض بواشنطن، وذي الميول الليكودية راح يهيل التراب على اسم "فلسطين" ذاته، فقد ادعى في أحد كتبه أن ذلك الاسم قد اختفى قبل الحروب الصليبية بتسعة قرون، وأن الذي أعاد إحياء الاسم ثانية هم الأوربيون، من خلال إحياء الدراسات

الكلاسيكية في العصر الحديث، ولم يبدأ استعمال الاسم داخل فلسطين ذاتها إلا في القرن العشرين، وكان المسيحيون هم الذين راحوا يستبدلون اسم الأراضي المقدسة بفلسطين، كما استعمله بعض المسلمين المتصلين والمتأثرين بالغرب[1] !!

كان الرومان هم الذين أطلقوا اسم "فلسطين" على المنطقة التي كانت تسمى من قبل أرض كنعان.. وبقيت التسمية حتى بعد الفتح العربي للشام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وظلت فلسطين طوال الدول الإسلامية من دولة الراشدين إلى الدولة العثمانية في أوائل القرن العشرين جزءاً من بلاد الشام، ولو عدنا إلى الكثير من كتب التاريخ والحوليات الإسلامية لوجدنا الاسم (فلسطين) يستعمل ولم يختف كما ذهب برنارد لويس، وعلى

(١) برنارد لويس: الساميون والمعادون للسامية. ترجمة محمد محمود عمر.

سبيل المثال كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير.. في المجلد الأول يتحدث عن الأنبياء والرسل، فيقول عن صالح" وأما صالح عليه السلام فإنه سار إلى الشام فنزل فلسطين" وفي تناوله لقصة إبراهيم وزوجته هاجر يقول "فكان إبراهيم قد خرج بها إلى الشام من مصر خوفاً من فرعون، فنزل السبع من أرض فلسطين.." وفي المجلد العاشر، حين يرصد أحداث سنة ٤٦٠ هجرية يقول ابن الأثير " وفيها في جمادي الأولى، كانت بفلسطين ومصر زلزلة شديدة خربت الرملة. وفي المجلد الثاني عشر، وقائع العام ٥٩٠ هجرية، يقول "فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز .."

كان الاسم موجوداً ويستعمل في الثقافة العربية، لكن الذي لم يكن قائماً هو وحدة سياسية باسم فلسطين، فكما سبق القول كانت جزءاً من بلاد الشام، والتي تضم الآن سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.. ولعل هذا ما عناه مؤرخ بارز للحركة الوطنية الفلسطينية بالقول ".. لم تصبح فلسطين وحدة سياسية وجغرافية إلا في أعقاب الحرب العالمية الأولى ونتيجة لتسوياتها"(١).

يتمتع موقع فلسطين بأهمية سياسية، فهي تطل مباشرة على البحر المتوسط، وهي حلقة الوصل بين مصر وبقية بلاد الشام، وقبل حفر قناة السويس، لم تكن هناك أي حواجز طبيعية أو

---

(١) عادل غنيم: الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦، صفحة ١٢ .

صناعية بين البلدين، ولم يكن ممكناً تأمين حكم مصر بدون تأمين الأوضاع في فلسطين، فهي بوابة مصر عند حدها الشمالي الشرقي والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة، وبغض النظر عن أهمية موقع فلسطين جغرافياً وسياسياً، فإنها تمتعت بأهمية روحية خاصة لدى اتباع الديانات السماوية الثلاث، القدس موضع إجلال المسلمين، حيث المسجد الأقصى، وإليها أسري برسول الله محمد ﷺ ومنها عرج به إلى السماء، وهذه البقعة نفسها مقدّسة لدى اليهود، فهي مقر الهيكل المقدس، وفلسطين مقدسة لدى المسيحيين أيضاً ففي بيت لحم ولد السيد المسيح، وفيها جرت معاناته وبها حاكمه خصومه اليهود وحكموا عليه بالإعدام، وشرعوا في تنفيذ الحكم وبالمعيار المسيحي فقد صلب السيد المسيح بها.. وهذه الأهمية الروحية، جذبت اهتمام المتدينين إليها من المسلمين والمسيحيين واليهود، وبسبب هذه الأهمية قامت الحروب الصليبية، حين اتجهت جيوش أوربا كلها إلى فلسطين بدعوى حماية مرقد السيد المسيح وتأمين الحجاج المسيحيين في الوصول إليها، وجرى أطول صدام عسكري بين الشرق والغرب على أرضها وامتد منها إلى مصر وهذا يعني أن الغرب المسيحي كان ملتفتاً مبكراً إلى أهمية موقع فلسطين وما تضم، وبعد انتهاء تلك الحروب وسقوط الممالك اللاتينية بفلسطين، هدأت الأمور، حتى نهاية القرن الثامن عشر، حين جاء نابليون بحملته على مصر في عام ١٧٩٨، وكان لافتاً أن نابليون، قبل أن يؤمن أوضاعه في مصر، حيث كانت

المقاومة عنيفة في الصعيد وفي الدلتا اتجه تفكيره وخياله إلى فلسطين، إذ أرسل الجنرال كليبر على رأس حملة إلى فلسطين، ثم لحق هو الآخر بالحملة، لم يتجه نابليون إلى الأماكن الدينية بفلسطين، لكنه سار بحذاء البحر المتوسط، ليمنع الجيوش العثمانية من محاولة الوصول إلى مصر، وليمنع الأسطول البريطاني من الاقتراب أكثر، بعد أن دمر أسطوله في أبي قير، دخل كليبر العريش ومنها عبر إلى غزة ثم إلى يافا، سيئة الحظ، فقاومت حاميتها ثم حصلت على وعد بالأمان من كليبر وقامت بالتسليم، لكن نابليون وجد أن ليس لديه ما يكفي من غذاء لهذه الحامية، أربعة آلاف مقاتل، وليس لديه قوات تكفي لتأمين إرسالهم أسرى إلى القاهرة، فضلاً عن إعاشتهم، وهكذا أصدر أمراً بإعدامهم جميعاً رغم اعتراضات كليبر، الذي كان قد وعدهم بالأمان، وكانت الظروف ضاغطة على نابليون فأمر بإعدام الجرحى والمرضى من جنوده وضباطه أيضاً وتقدم نحو عكا يحاول السيطرة عليها، ولو أمكن له امتلاكها لسقط الشام كله أمام الحملة، عكا، آنذاك ، تمتلك قلعة حصينة، والوالي هو أحمد باشا الجزار، الجزار صفة أطلقت عليه من شدة بطشه، وهو أقوى الولاة العثمانيين بالمنطقة، وقد أدرك الإنجليز خطورة عكا، وهكذا رابض الأسطول الإنجليزي أمام ساحل عكا يمد الجزار بالعتاد ويدعمه، حتى أن الأخير فكر بالهرب، لوحاول فعلا كان قائد الأسطول منعه[1]،

(١) راجع في ذلك: نقولا الترك . ذكر تملك جمهور الفرنساوية للديار المصرية والبلاد الشامية . حققه وقدم له ووضع حواشيه العميد الركن د. ياسين سويد ، الناشر دار الفارابي، سنة ١٩٩٠ .

وتعثر نابليون أمام أسوار عكا، وفي النهاية فشل وهزم أمامها، وحاول فعلا، وأضطر إلى الانسحاب والعودة ثانية إلى القاهرة، وكان لافتاً أن يوجه نابليون من فلسطين نداء إلى اليهود، ويخاطبهم قائلاً "يا ورثة فلسطين الشرعيين" ودعاهم إلى "إعادة احتلال وطنهم" ووعدهم بأنه سوف يهتم ويدعم أمتهم والمحافظة عليها بعيداً عن أطماع الطامعين لكي يصبحوا أسياد بلادهم الحقيقيين." وطالبهم بمساندته والوقوف إلى جواره، ولم يفته أن يعلن بعض التصورات عن نفسه، والتي ردد مثلها للمسلمين في مصر "إن العناية الآلهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا قد جعلت العدل رائدي، وكلفتني بالظفر، وجعلت من القدس مقري العام.." كان ذلك النداء في ٤ أبريل ١٧٩٩، وقد اجتهد الباحثون والمؤرخون في تحليل دوافع نابليون إلى هذا النداء، والرأي السائد أنه كان يرغب في أن ينال مساعدة يهود المنطقة وأن يمده أثرياء اليهود بالمال والعتاد، وقد يكون ذلك دافعاً وسبباً لدى البعض لكنه يمكن أن يكون موضع فشل ذلك أن يهود المنطقة لم يكن لديهم نفوذ أو مال، وعموما فإن هذا ليس كل شيء، ذلك أن نابليون بعد وصوله مصر وجه نداء، لم يلتفت إليه أحد وقتها، حث فيه جميع يهود آسيا وأفريقيا على مساندته وتأييده في مشروعه الشرقي، وذلك لاستعادة " مجدهم الغابر وأيضا إعادة إنشاء "مملكة القدس القديمة" ولم يكن الموضوع طارئاً عليه، فالقضية اليهودية كانت مطروحة للتداول في حكومة الإدارة

بفرنسا، قبل قيام "جيش الشرق" بحملته على مصر ، وكانت حكومة الإدارة قد أعدت خطة يتم تنفيذها إذا ما نجحت حملة نابليون في امتلاك مصر وبلاد الشام، أي المشرق العربي كله ، كانت الخطة تقوم على إنشاء كو منولث يهودي في فلسطين [(١)]" مقابل إقراض الممولين اليهود الحكومة الفرنسية للخروج من أزمتها الاقتصادية، فضلاً عن المساهمة في تمويل الجيش المتجه نحو الشرق..، وهناك اتصالات حول ذلك الأمر حدثت بين حكومة الإدارة وقادة الجالية اليهودية في فرنسا، وكان نابليون مطلعاً على هذه الاتصالات وملماً بخلفياتها.

فشلت حملة نابليون وانسحبت مهزومة من مصر في عام ١٨٠١، لكن الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الحاكمة لبلاد المنطقة، لم تنتبه إلى ما جرى، لم تنتبه لما يدور بالنسبة لفلسطين في العواصم الأوروبية، ولم تنتبه حتى لنداء نابليون إلى اليهود سواء من القاهرة أو من عكا.. ولعلها استخفَّتْ بالأمر، رغم أنه كان جدّ خطير وكان يجب أن يثير القلق لديها والحذر..!!

كانت فلسطين واحدة من الولايات العربية التي استولت عليها الدولة العثمانية في عام ١٥١٧ بعد إسقاط دولة المماليك والتي كانت تحكم مصر والشام وبلاد الحجاز وفلسطين، هي الجزء الجنوبي من بلاد الشام، ولم يكن لها كيان إداري أو سياسي واحد،

(١) راجع : د. أمين عبدالله محمود "مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. سلسلة عالم المعرفة . فبراير ١٩٨٤ .

وقد أثار هذا الأمر لغطاً كبيراً بين عدد من الباحثين الغربيين، المتعاطفين مع الصهيونية تحديداً، والواقع أن فلسطين لم تكن منفردة بذلك، الخريطة العربية طوال العصور الإسلامية تختلف عن تلك التي ظهرت بعد اتفاقية سايكس/ بيكو في مطلع القرن العشرين، لم يكن هناك كيان سياسي وإداري اسمه لبنان أو الأردن مثلاً فلم تكن الدولة القومية والقطرية قد عرفت على هذا النحو الذي نعرفه، كانت هذه كلها ديار الإسلام، وكانت تقسم إلى إمارات أو ولايات تختلف من فترة إلى أخرى ومن أسرة حاكمة إلي أخرى وسوف نجد أنه في مظلم فترات التاريخ الإسلامي كانت مدينة حلب السورية والموصل العراقية، تشكلان معا ولاية أو إمارة واحدة فالمسافة بينهما قريبة جداً، وكانت مدن الساحل في شرق المتوسط مثل عكا وحيفا وبيروت تضمها غالباً وحدة إدارية واحدة وكانت القدس وما حولها تتبع دمشق حينا ثم صيدا حيناً آخر، والأمر نفسه بالنسبة لمعظم البلدان العربية ربما كانت مصر حالة متفردة، إذا احتفظت بحدودها كما هي، عبر التاريخ، منذ أيام الفراعنة، واحتفظت بكيانها السياسي والإداري الموحد، صحيح أن الدولة التي تحكمها كانت تأخذ البعد الأمبراطوري أحياناً، فتمتد شمالاً باتجاه فلسطين وبلاد الشام أو جنوباً نحو السودان لكن دون أن تفقد حدودها الإدارية، وكان البعد الإسلامي يضمن لها قبولاً في تلك المناطق والبلدان، فضلاً عن طبيعة العصر ذاته، ولكن لم يحدث أن فقدت أي من هذه البلدان وجودها الإداري ولا اسمها.

كـان الحكم في بلاد الشـام غيـر مـركزي، وكـانت الولايات أقـرب إلى الإقطاعيـات، وكانت فلسـطين تتكون غالبـاً من ثلاث مناطق، القـدس ومـا حـولهـا، عكـا ومـدن السـاحل، نابلس ومـا حولها، لكن بظهـور أحمد باشا الجزار أرادت الدولة العثـمانية أن تحد من نـفوذ هؤلاء الأمراء وتقلـل من تلك الإمارات، فـقد ألحق لواء (سنجق) عكا بولايـة بيروت وضـم إليـهـا أيضـاً لواء نابلس، كان ذلك في ١٨٨٣ بعد إعادة تنظيـم ولاية الشام".

بقي لواء "اسنجق"، القدس وضـم المنـاطق الجنوبية بفلسطين، وإذا كـان الجزار تولّى الجـزء الأول، فإن لواء القـدس، لـم يعين له والياً خاصاً، بل صار تابعاً إلى الآستانة مباشرة ، أي عاصمة الدولة العلية، وكان يتولاه وزير الداخلية العـثماني، وقد منح لواء القدس هذه الأهمـية بسـبب المكانة الدينيـة لمدينة القدس ومـا حولهـا من مقدسات للمسلمين وللمسـيحيين ولليهود، ولـم تكن هناك مشكلة بالنسبة للمسلمين، لكن المشكلة كانت في المسـيحيين واليهود، فقد كـانت الدولة العليـة قد توسـعت في منح الامـتيـازات الأجنبيـة، ودخلت بعض الدول لتـتولى رعـاية بعض الطوائف داخل الدولة، كانـت روسيـا مثلاً تـهتم بالمسـيحـيين الأرثوذكس في فلسطين.. كانت كل دولة مـن الدول الكبرى تطمع في أن يكون لهـا موطيء قدم بالمنـطقة، ولـم يكن هنا من مـدخل سوى الاهتمـام بالطوائف، تسمى في عـالمنا اليوم الأقليـات، وكانت الدولة العليـة في ترهلها الشديد وضعفها العسكري وأزمتـها الاقتصادية بحاجة إلى المعونة

والمساندة، فكانت تقيم تنازلا تلو الآخر ، ولم تكن تدرك أنها بذلك تدق مسامير نعشها، وأنها سوف تترك ميراثاً ثقيلاً من الضعف والهوان ما زال أبناء المنطقة يتحملونه إلى اليوم على أكثر من صعيد.

المهم أنه في ظل هذه الظروف والحساسية الدولية قررت الدولة أن تتولى بنفسها مسئولية لواء القدس، ورغم ذلك زادت التدخلات الأجنبية والأطماع الأوروبية ، وتحول الأمر إلى ما يشبه سلعة يتم التفاوض عليه بالمال مع السلطان نفسه، وصحيح أنه لم يوافق على البيع، لكنه تصور أن دوره يقف عند حد رفض البيع، فلم يقم بما كان ينبغي عليه من سد الذرائع أمام الأجنبي وتحصين البيت من الداخل بالنهضة والحرية والعدالة.

في عام ١٨٨٢ ، حين بدأت الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، كان لواء القدس يشمل أكثر من ٧٥ ٪ من سكان فلسطين ومعظم أراضيها، كان به ٣٢٨ قرية وقدر عدد سكانه بأكثر من ٣٤٠ ألف نسمة، وكان لواء عكا به ٢٢٢ قرية وعدد سكانه حوالي ٧٧ ألف نسمة، بينما كان لواء نابلس يسكنه حوالي ٤٩ ألف نسمة واشتمل ٢١٢ قرية[١]، وهذا يعني أن النشاط الغالب للسكان كان الزراعة وكان الحرفيون يسكنون المدن.

(١) راجع د. عبالوهاب الكيالي " تاريخ فلسطين الحديث" ط ١١ سنة ٩٩ . الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

وكان معظم سكان فلسطين من المسلمين السنة، بالإضافة إلى المسيحيين، وأما اليهود فقد تركزوا في المدن الأربعة المقدسة لديهم، وهي القدس والخليل وصفد وطبريا وكانوا من المتدينين الأتقياء، وبعضهم كان يعيش على الصدقات التي يتقدم بها أغنياء اليهود وعمل عدد منهم في بعض الحرف، فكانوا حرفيين مهرة، خاصة في أعمال الصاغة والحدادة والخياطة وتجليد الكتب واحتكروا الأعمال المتعلقة بالصيرفة [1].

وكان الفلاح الفلسطيني مثل الفلاح المصري وغيره من التابعين للدولة العثمانية، تسيطر الدولة على كل شيء من خلال الملتزمين أو حفنة من الإقطاعيين، وليس للفلاح سوى العمل وقد يجد ما يقتات به، تثقل كاهله الضرائب المفروضة عليه وهناك فظاظة في تحصيلها وغالباً ما كان الفلاح يعجز عن دفع الضرائب، فيترك أرضه وتضع الدولة أو أحد الإقطاعيين (الوجهاء) يده عليها، وشددت التنظيمات العثمانية الصادرة في ١٨٥٦، لإصلاح الإدارة من قبضة الوجهاء والإقطاعيين على الفلاح الفلسطيني وزادت من قيمة الضرائب المفروضة، حتى اضطر صغار الملاك من الفلاحين إلى تسجيل أراضيهم باسم بعض الوجهاء، ليفلتوا من الضرائب وضغوط الدولة عليهم، وبيعت الكثير من أراضي الفلاحين في مزاد عقد سنة ١٨٦٩، لتحصيل الضرائب التي عجزوا عن سدادها، باختصار آلت معظم الأراضي الفلسطينية

(١) المرجع السابق

لعدد محدود من الوجهاء وكبار العائلات الذين يقيمون في بيروت وما حولها [١] وهذا الوضع المختل للملكية ، سوف يتيح للمهاجرين اليهود الذين سيصلون إلى فلسطين فيما بعد امتلاك تلك الأراضي المهجورة والتي تتبع الدولة أو تلك التي يمتلكها كبار الملاك القاطنين في بيروت.

وكانت الثقافة الدينية هي السائدة في فلسطين، شأن المجتمعات العربية الأخرى، وغلب عليها الاعتقاد في أولياء الله، ثقافة الأولياء والموالد، وكان التعليم الديني هو السائد أيضا، ومن يريد أن يكمل تعليمه، كان عليه أن يرحل إلي القاهرة في الجامع الأزهر أو إلي دمشق حيث الجامع الأموي، وانتشر النفوذ الأوروبي ، نتيجة الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لعدد من الدول الأوربية في أراضيها، وترتب عليه أن ظهرت المدارس التي تحمل الطابع التبشيري والأوربي في المدن الفلسطينية، وكان طبيعيا أن تكون مدن الساحل هي الأكثر استفادة بهذه المدارس، مثل يافا وحيفا وعكا وكانت الأسر المسيحية هي الت أقدمت علي إدخال أبنائها إلي تلك المدارس، تلك هي الفترة التي تبارت فيها الدول الأوربية لحماية الأقليات علي الأراضي العثمانية، وقد أدت المؤسسات التعليمية الحديثة إلي ارتفاع مستوي السكان الذين التحقوا بها، وهكذا كان المسيحيون - ١٠٪ من سكان فلسطين - لكن وضعهم في المجتمع صار أكبر كثيرا من هذه النسبة، ذلك أن

(١) المرجع السابق.

الدول الأوربيـة جاءت بالمدارس وبضائـع وتجارة عبـر الموانى على البحر واستفاد أهل المدن من تلك التـجارة وظهرت أيضا السمسرة في الأراضي، كل هذا بينما سكان الريف الفلسطـيني كما هم علي حالهم.[1]

وهكذا فإن الدولة العـتمانية فرضت على الفلسـطينيين وضعاً بالغ الغـرابـة، دولتـهم المعـبـرة عنهم فـي اسـتـانبـول، أي خـارج حدودهم، وعـدد من الوجهاء أو كبـار الملاك يقيمـون في بيروت، ومن يتعلم يذهب إلى الأزهر، وهكذا مـجتمع بلا صفـوة أو نخبة حقيقية تقوده، وتثير الوعي بين أبنائه، رغم أن هذا المجتمع سبق أن قدم شخصيات عديدة مؤثرة في التاريخ العربي كله.

كـانت الدولة العثـمـانية في أضـعـف حـالاتها وأشـد أيامهـا استـبداداً وعدم إدراك لما يخطط لها فـي كواليس السياسـة الدولية يحاك حـول ولاياتها العربيـة، كان الاستعـمار الغربي يتـحرك في عنفـوان وقوة، وبدت البـشائر بحـملة نابليـون ومطامع فرنسا في مصر وفلسطين، ثم في الجزائر فيما بعد، وكانت تقابله مطامع أشد لإنجلتـرا، لكن الدولة العثـمانيـة كانـت قد بلغت مـرحلة التكلّس التام!!

(١) راجع: عادل مناع: تاريخ فـلسطين في أواخر العهـد العثمـاني ١٧٠٠ / ١٩١٨ قراءة جديدة ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، الناشر مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بدون تاريخ

وفي ظل المطامع الأوروبية في بلاد المنطقة، كـانت أزمة اليهود في أوروبا وبلاد الغـرب عـمـومـاً، تزداد حـدة. بدأت الأزمـة في روسيا وفي بولندا ثم امتدت إلى فرنسا.

كان اليـهود يعيـشون في الشرق وفي الغـرب، وأعنى بالشرق هنا، الشرق الـعربي والإسلامي، وقـد عاشوا في هـذه المجتمـعات وامتـهنوا الكثـير من الحرف، ولم يتخـصصوا فـي مهنة أو حـرفة بعـينها ولم يحـصرهم المجتمع في دور مـعين، كان فـيهم التـاجر والحرفي وكان بينهم الطبـيب والعالم ولمعوا في الحياة الاجتـماعية والثقافية والسياسية أيضـاً، بينما كانت الصورة مختلفة في الغرب، حيث عـاش اليهـود "الجيـتو" بمعناه الكامل، وتم حـصره في دور ووظيـفة مـحددة هي الـعمل المالي والربا، فـرض عليـهم المجتـمع ذلك، ثم كرههم بسـبب تلك المهنة وعيرّهـم بـها ، ولعل مسرحـية شكسبـير "تاجـر البندقيـة" تكشف بوضوح تلك الحـالة، لم يكن" شيلوك" في مسرحية شكسبير شخص أو بطل عادي، بل كان رمزاً لليـهودي في هذا المجـتمع وتلـك الثقـافة، حـتى أن كلمة يهـودي أصبـحت - كما يلاحظ د. عـبدالوهاب المسـيري- مرادفـة لكلمة تاجـر أو مرابي، وكـان الناس كثـيراً مـا يتحـدثون عن "اليهـودي والمدين" بدلاً من أن يقـولوا "الـدائن والمدين" وكـانت الكثـيـر من الدول التي تريد تنشيط الحركـة التجارية وإنعاش اقتـصادها تشجّع اليهـود على الاستـيطان بها. ولكن الربا يقـوم على طرفين، طرف مستـفيد أو مستـغل وآخر مضار أو وقع عليه الاسـتغلال، الطرف

الديني والسياسي ـ على هذا النحو- في بناء المجال العام، فإن ذلك يكشف عن تلازمهما، وليس أبداً تمايزهما في تجربة الإسلام.

ولعل مثالاً على قوة هذا التلازم وعمق تجذّره يتأتى من أن حدثاً تاريخياً كفتح مكة، الذي يمثل تمام الإنتصار السياسي، في مغامرة الإسلام الأولى، قد كان بمثابة التتمة والإكمال للديني في نفس الوقت؛ وبحيث بدا وكأن مغامرة الإسلام الأولى إنما تنطوي على تشكُّل الديني والسياسي في نفس المصهر تقريباً. والحق أن الأمر يتجاوز مجرد ذلك إلى ما يبدو من أن هذا التلازم يكاد أن يضع نفسه في قلب الجانب التعبّدي في الإسلام. فإذ الإسلام، بحسب المأثور الشهير، ينبني على خمس: هي الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج، فإن تراتب هذه الأركان الخمس، في المأثور، لا يعكس ترتيبها في الانبثاق التاريخي فحسب، بل يعكس أيضاً، وهو الأهم، تراتبها في القيمة والفضل؛ وعلى نحو يبدو معه أن الأركان الثلاثة الأولى مختصة بما تعلو به على ما يأتي بعدها. إذ تتواتر الشواهد، في القرآن ودواوين الحديث، بما يكشف، صراحة، عن أن شارة الانضواء تحت راية الإسلام إنما تقوم في الوفاء بمقتضيات هذه الأركان الثلاثة الأولى. وبالطبع فإن ذلك لا يعنى البتة عدم جوهرية ما سواها؛ وإنما الأمر يقف عند حدود الوعي بما يبدو وكأنه التمايز تشهد به النصوص المعتبرة حين تنطق بما يربط الإسلام ببعض الأركان بعينها، وتسكت تماماً عن غيرها. وهنا فإنه لا يمكن تصور التمايز يلحق ببعض هذه الأركان ابتداء

من أن حضور "الديني" فيهـا يكون أقوى منه في غيرها؛ وذلك لأن هذا الحضـور للديني يكون فيهـا متماثلاً من دون أي تميـيز. وعلى هذا،فـإن هذا التمـايز إنما يطال بعـض هذه الأركان من شيء آخـر غـيـر "الدينـي"،والذي لا يمكن أن يكون إلا مـا تنطـوى عليـه من "السيـاسي" إلى جانـب الديني بالطبع. ومن حسن الحظ أن تحلـيلاً لهذه الأركـان؛ التي يحمل استـيفاء مـقتضـاها دلالة الانضواء في الإسلام، يتكشف عن حمولة سياسية كـثيفة تتفاعل، في قلبها، مع الديني الطافح على سطحها.

فإذ يتـركب ركن" الشهادة"،وإعلان الإيمان، من مـقطعين هما الشهـادة- في أولهمـا- بأن "لا إله إلا الله"، وبأن "مـحمـد رسول الله" في الثاني، فـإن كلا المقطعين يتكاملان في إنتاج دلالـة تتعدّي مجرد التعبُّد إلى إضمار حمـولة سياسية، ينعكس حضورها فاعلاً بقـوة فـيمـا راحت تئـول إليـه من تقـويض السلطة، أو بالأحـرى السلطات، القائمـة وتوحيدها. فـالحق أنه إذا كان الشطر الأول من الشهـادة؛ أعني "أشهـد أن لا إله إلا الله، يتركب- هو نفـسه- من مـقطـعين ينطوى أولهـمـا "لا إله" على السـلب، فـيـمـا ينطوى الآخـر"إلا اللـه" على الإيجـاب؛ فـإن تلك الجـدليـة بين السلب والإيجـاب تتكشف عـن أنه النفي المطلق لكل سـلطة، في مـقـابل الإقـرار بسلطة الله الواحـد فـقط. وغنيٌّ عن البيـان أن النفي، في الشهادة، إنما يتعلق بسلـطة الآباء والأسلاف؛ الذين مثَّلوا كأرباب، بالمعنى السياسي وليس بالمعنى الديني فقـط، التحدِّي الأكبر لسلطة

الله الواحـد؛ الأمر الذي ينعكس في مـا تتواتر به نصـوص الوحي من ربط الإنكار المتكرر لسلطة الله، بالإنصـياع لسلطة الآباء الذين ارتفعوا من مجرد شيوخ وكبـراء تتمحور حولهم العصائب بالمعنى السـيـاسي، حـسب ابن خلدون، إلى أرباب لا تفـارقـهم أطيـاف الديني ومخـايلاته. وبالطبع فإن المخيـال الذي ارتقى بهؤلاء الآباء إلى مصـافّ الآلهة والأرباب، فأضـاف إلى مركزيتـهم السياسـية، مركزية دينية موازية، لم يكن ليقدر- إذ راح يزيح هؤلاء الآباء من مركز السلـطة ليتسنى لسلطة الله البديلة أن تشـغله- إلا أن يسرِّب إلى تصوره لتلك السلطة البديلـة ما استقر في أغواره السـحيقة من معـانقـة السيـاسي للديني. وهنا يلزم التنويه بأن الشطر الثـاني من الشهـادة "أشهد أنّ مـحمداً رسـول الله" إنما يُعيّن المجلى المتـحقق لسلطة الله؛ وأعني بهـا سلطة النبي الذي جـعل الوحي من طاعـته وجـهاً لطاعـة الله نفـسه. وحين يدرك المـرء أن سلطة النبي- التي يتـعانق فـيهـا الديني والسـياسي طبـعـاً- قد راحت، هي نفـسهـا، تتناسخ في الخلـفاء والأمـراء من بعـده؛ الذين راح يجـري تصـور سلطتهم، عـبر وساطـة سلطة النبي، في نفس مستـوى سلطة الله، فإن ما يضـمـره ركن "الشهادة" من السياسة يكاد أن يـتجلّى كاملاً؛ وإلى حـد ما يبـدو من أن الشهـادة تكاد أن تكون بمثابة إعـلان عن الولاء لسلطة موّحدة تنبثق بديلة لسلطة مـبعثرة، وذلك إلى جانب ما تحمله- بالطبع- من الإقرار بالوحدانية بالمعنى الديني.

وفـيمـا يتـعلق بالركن الثـاني مـن أركـان الإسـلام؛ وأعني

"الصلاة"، فإنه لمما يثير الاندهاش حقاً، ذلك التضارب بين الفقهاء، وحتى المتكلمين، حول جواز أو عدم جواز إعادة الصلاة إذا أداها المرء خلف مَنْ ولّى أمور المسلمين من أهل البدع. وبصرف النظر عن ما انتهي إليه الفقهاء من جواز الإعادة أوعدمها، فإنه يبقى، ما ينطوي عليه هذا التباين، من التمييز بين الصلاة كعمل تعبُّدي، وبينها كعمل يحمل دلالة سياسية. فإن الحكم بجواز- أو حتى وجوب- إعادة الصلاة حال أدائها خلف ولاة الأمر المنظور إليهم كمبتدعة، إنما يعني أن المرء لم يكن مختاراً حين أداها خلف هؤلاء الولاة الفسقة، بل كان مضطراً لهذا الأداء. وبالطبع فإنه الاضطرار، لا بالمعني الديني، بل بالمعني السياسي؛ والذي يجعل الأمر يتجاوز وجوب التعبُّد لله،إلى وجوب إعلان الطاعة والخضوع لوليّ الأمر. وإذ يحيل ذلك إلى ما تنطوى عليه الصلاة من دلالة الخضوع والطاعة بالمعنيين الديني والسياسي، فإنه يلزم التنويه بأن دلالة السياسي تقترن بدلالة الديني في الصلاة، قد جعلت الانتقال ممكناً من الإمامة في الصلاة إلى الإمامة في السياسة. ومن هنا ما جرى من الاحتجاج بإمامة أبي بكر للصلاة، أثناء مرض النبي، على جدارته بخلافته في إمامتهم بالمعنى السياسي؛ وهو القران، بين الديني والسياسي، تؤكده عبارة أبي بكر نفسه،"وُليتكم (بالمعنى السياسي) ولست بخيركم، إنى وُليتكم الصلاة ورسول الله، صلى الله عليه، حاضر"[1] وإذ هي الولاية،

(١)الباقلاني: التمهيد (سبق ذكره) ص١٩٠ .

قد انتقل إلى فلسطين وأقام نهائياً في حيفا حتى مات ودفن بها في عام ١٨٨٨، وكان يدعو إلى طرد العرب من فلسطين ويعودوا رعاة كما كانوا وهناك ويليام هشلر الذي صار من كبار رجال الكنيسة في إنجلترا وأصدر في عام ١٨٨٤ دراسة بعنوان "إرجاع اليهود إلى فلسطين حسبما ورد في أسفار الأنبياء".

إلى جوار هذه الآراء والأفكار التي تحولت إلى مسار عملي، كانت هناك خطوات فعلية أخرى مثل صندوق اكتشاف فلسطين[١] الذي أنشيء في لندن عام ١٨٦٥ وكانت ترعاه الملكة فيكتوريا، صحيح أن الصندوق أنشيء لهدف استعماري بريطاني واضح، لكن كان موقع فلسطين مهما لبريطانيا منذ محاولة نابليون في ١٧٩٩ احتلالها ثم دخول جيش إبراهيم باشا إليها ووقوعها في قبضة محمد علي، حتى ألزمته بريطانيا والدولة العثمانية الخروج منها ومن الشام كله، وقام الصندوق بعملية فحص دقيقة لكل فلسطين، وفيما بعد تداخل الاستعماري مع الصهيوني، وقد أنشيء صندوق أمريكي بنفس الإسم ولنفس الغرض ... وبدأت الهجرات اليهودية إلى فلسطين ثم أخذت طابعاً صهيونياً، كل هذا والولاة العثمانيون بالمنطقة لا يعون شيئاً مما يجري حولهم أو يخطط للبلاد التي يحكمونها، كانوا بين جاهل، غير واع ولا متابع

(١) حول هذا الصندوق ودوره راجع د. خيرية قاسمية: صندوق استكشاف فلسطين، أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، المجلد الثاني وقد نظم المؤتمر جامعة اليرموك والجامعة الأوروبية.

للسياسة الدولية في المنطقة أو مرتش ، وظهرت المستعمرات (المستوطنات) الصهيونية في فلسطين، أما السلطان عبدالحميد، فبالتأكيد كان علي علم بالأطماع وما يخطط لفلسطين، إذا عرض عليه الأمر أكثر من مرة، وغاية ما فعله أنه لم يعطِ موافقة على الهجرة اليهودية بالقدس وتحديداً حولي المسجد الأقصى، وسمح بالهجرة في بقية المدن والقرى الفلسطينية، كان المهاجر يدخل وبعد أسبوعين يتقدم بطلب رغوية إلى الدولة، فيحصل عليه من الوالي، وبذلك يعتبر مواطناً عثمانياً ويصبح من حقه التملك بها والتحرك بحرية داخلها!!

وبدأ الأهالي في فلسطين يتضررون من تلك الهجرات، إذا أدركوا مبكراً أنها بديارهم وأرضهم وأنها تهدد وجودهم ومستقبلهم بهذه الأرض. ولم يصمتوا كما قيل ولا فرطوا في أراضيهم وباعوها للأثرياء اليهود كما رددت الدعاية الصهيونية ضدهم.

في البداية، حدثت خلافات بين الأهالي والمستوطنين، على مسائل متوقعة مثل حدود الأراضي وملكيتها وحق الرعي، فضلاً عن اختلاف العادات والتقاليد كان معظم المهاجرين الأوائل من اليهود الروس والبولنديين، لكن الهجرة ظلت محدودة، ذلك أن المستعمرات أقيمت في البداية على أراضي مملوكة للدولة وليس لأفراد، وأمكن التعايش، ملاك ومزارعون جدد بجوار أبناء البلد،

فضلاً عن أن الثقافة العامة في المجتمع الفلسطيني لم تكن بها أفكار عدائية أو عنصرية تجاه اليهود، ولكن اتضحت فيما بعد الأهداف السياسية من وراء تلك المستوطنات، هنا بدأ العرب ينظرون بريبة وشك تجاه المستعمرات التي تقام على أراضيهم، وكما سبقت الإشارة إلي ذلك، فإن برقية بعث بها وجهاء العرب في القدس بتاريخ ٢٤ يونية (حزيران) عام ١٨٩١ إلى الصدر الأعظم في الآستانة يشكون فيها من المهاجرين الروس (اليهود) إلى بلادهم، ويطلبون وقف تلك الهجرات وعدم تملك المهاجرين الأراضي، الواضح أن البرقية كانت من سكان وأهالي (لواء) القدس، وكان النقاش كله حولها، فهي مناطق ذات بعد روحي بينما المهاجرين علمانيون أي ليسوا من اليهود المتدينين والأتقياء الذين اعتاد عليهم الأهالي، أما اللواء الآخر والذي ضم حيفا ويافا تحديداً، فقد كانت المستعمرات تقام فيها بوتيرة سريعة جداً، وفي صحف ذلك الزمان نجد همساً حول رشاوي تقاضاها الولاة والمسئولون المحليون بهذه المناطق لتسهيل الهجرة والتملك والتغاضي عن الكثير من المخالفات للوائح والقوانين المعمول بها.

الواضح أيضاً أن البرقية لم تحقق المطلوب، فلم يحدث رد فعل ، ولا تحركت الدولة العلية لدراسة الموقف ولم تتم الاستجابة، فقد تبعتها الشكاوي، ولما لم يجد الأهالي رداً إيجابياً أو موقفاً عملياً من الدولة العلية، أخذوا يشكون إلى الصحف في مصر.

أهم المراجع:

١- عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح: تاريخ فلسطين - الناشر دار المعارف بمصر، ٢٠٠١ .

٢- د. أمين عبدالله محمود مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى الناشر: سلسلة عالم المعرفة . فبراير ١٩٨٤ .

٣- د. عبدالوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، القسم الأول. الناشر: سلسلة عالم المعرفة. ديسمبر ١٩٨٢ .

٤- ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ترجمة أحمد عبدالله عبدالعزيز. الناشر: سلسلة عالم المعرفة.ديسمبر ١٩٨٥ .

٥- د. عبدالوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث . ط ١١ سنة ١٩٩٩، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٦- برنارد لويس : الساميون والمعادون للسامية. ترجمة محمد محمود عمر.

٧- د.أحمد زكريا الشلق:فلسطين وبدايات الحركة الصهيونية من نشأتها حتى وعد بلفور ١٩١٧دراسة ضمن مجلد دراسات تاريخية مهداه إلى أ.د.عادل غنيم،تحرير جمال حجر ٢٠٠٥ .

٨- أعمال المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) في ثلاثة مجلدات . الطبعة الأولى ,١٩٨٣ أعد المؤتمر الجامعة الأردنية (عمان) وجامعة اليرموك (إربد).

الفصل

الثاني

2

رشيد رضا:-

الاتفاق مع زعماء الصهيونية

أو المقاومة!

ربما لم يجد عرب فلسطين غضاضة في هجرة أعداد من اليهود إلى فلسطين عام ١٨٨٢، فقد كانت أعداد منهم هاجرت، إلى فلسطين من قبل، هم يهود مضطهدون في بلدانهم، بأوروبا الشرقية، وجاءوا إلى هنا بحثاً عن الأمان، والهجرة تتم بسماح وترحيب من السلطنة العثمانية، صاحبة السيادة على فلسطين، صحيح أن الهجر منذ عام ١٨٨٢ تختلف عن سابقاتها، جاء المهاجرون وفي نيتهم الإقامة النهائية والاستيطان في فلسطين، وكانت الفكرة الصهيونية تتبلور في عدد من العقول المؤثرة ليهود أوروبا، وكانت فكرة اندماج اليهود في مجتمعاتهم قد سقطت، ولم يجدوا لهم موقعاً في الدولة القومية بأوروبا، واتجه دعاة الفكرة الصهيونية إلى البحث عن وطن قومي لليهود، خاص بهم، وكان أن ركز بعضهم على فلسطين أو أرض الميعاد، ثم استقروا على ذلك.

العرب من جانبهم رحبوا بهؤلاء المهاجرين، فقد سبقتهم بعض الهجرات ولم تحدث مشكلة، لا العرب أثاروا أزمة ولا المهاجرين اغضبوا العرب ولا حملوا أي تهديد نحوهم، لذا لم يكن غريباً أن يشيد القنصل البريطاني بالقدس في تقاريره الأولى إلى الخارجية البريطانية عن أحوال اليهود بمدى تسامح عرب فلسطين، خاصة المسلمين منهم، تجاه اليهود، حتى أنهم سمحوا لبعضهم بالإقامة في الأحياء الإسلامية... فهم العرب الهجرة على أنها مسألة إنسانية وأخلاقية لا تحمل طابعاً سياسياً، ويمكن أن نصنف هذا التعامل على أنه إعمال لمثل وقيم ثقافية واجتماعية تتمثل في مساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف، فضلاً عن أن التاريخ العربي والإسلامي لم يعرف بعد عصر الرسول ﷺ صداماً كبيراً مع اليهود، عرف ذلك التاريخ الصدام الضخم مع المسيحيين

الأوروبيين في حروب الفرنجة، كما أسماها المؤرخون العرب أو الحروب الصليبية كما أطلق عليها الأوربيون، وهكذا مضت الأمور والهجرات الأولى هادئة وناعمة.

لكن حدث التحول في العلاقة وفي التعامل تدريجياً، ويرصد د. عبدالوهاب الكيالي أن الصدام بدأ في عام ١٨٨٦ بين الفلاحين الفلسطينيين واليهود المهاجرين "بعد أن رأى الفلسطينيون الجانب الاستيطاني العدواني لهؤلاء المهاجرين، وكان يمكن لهذا الاحتكاك أن يمر، ويعد خلافاً متوقعاً بين فلاحين فلسطينيين وأولئك القادمين إليهم بثقافة ولغة مختلفة، وأيضاً بأسلوب حياة وعمل مختلف كثيراً عما ألفه العرب لقرون، لكن كانت الاحتكاكات تمتد والصدام يزداد، فالمهاجرون ليسوا فقط باحثين عن ملاذ آمن، لكنهم يحملون أفكاراً فيها الاستعلاء على هؤلاء العرب، وفيها الرغبة في إزاحتهم والتخلص منهم، رغم أنهم أصحاب البلد والأرض.

ولا نعرف، على وجه الدقة، متى ظهر مصطلح الصهيونية إلى مسامع الفلسطينيين وأبناء المنطقة، بالتأكيد كان العرب يعرفون اليهود أو بني إسرائيل، ولكن مبكراً بدأت التحذيرات في الصحف العربية من اتساع نطاق الهجرة اليهودية إلى فلسطين، "الهلال" المجلة الثقافية، في عهد مؤسسها "جورجي زيدان" نبهت وحذرت منذ العام ١٨٩٤، وإذا كانت الهلال وهي المجلة الشهرية قد نبهت فهذا يعني أن هناك غيرها من التفت ونبه!

وبعد الهلال بفترة وجيزة، يظهر مصطلح الصهيونية، بماتعنيه، واضحاً في بعض الكتابات، ففي إبريل ١٩٩٨ تنشر "المقتطف" رسالة من قارىء وقع بالأحرف الأولى، (أ. س. جواد) بفرانكفورت، حول الصهيونية وفلسطين، وربما يكون محرر المقتطف هو الذي وضعها، وتلك حيلة صحيفة تستعمل إلى اليوم، يمرر بها المحرر ما قد يصعب عليه قوله صراحة وباسمه هو، تقول الرسالة سواء كتبت من القاهرة أو فرانكفورت "لابد من أنكم سمعتم عن الحركة التي حدثت فجأة، منذ ستة أشهر، بين اليهود في بلاد النمسا وألمانيا وإنكلترا وأمريكا وهي المعروفة باسم الصهيونية. ويظهر من الجرائد الأوروبية أن غاية الصهيونية إنشاء مساكن في فلسطين لليهود والمضطهدين في روسيا وبلغاريا ورومانيا وبلاد الفرس والمغرب وذلك بإذن الدولة العلية وكفاية الدول الأوربية وتحت حمايتهم.. ولنلاحظ أن المعلن آنذاك كان هو "إنشاء مساكن لليهود في فلسطين، أي توفير ملاذ آمن وليس "وطناً قومياً" ولا دولة عبرية ويتضح من بقية الرسالة أنه ليس من بين أهداف الصهيونية مزاحمة الفلسطينيين في بلادهم، إذ تقول سطور الرسالة "مرادهم تعمير أراضي فلسطين بالفلاحة والصناعة فيعيشون آمنين في ظل الحضرة الشاهانية ويقل عدد الفقراء في أوروبا وتتسع أسباب التجارة بين الشرق والغرب"، وتشرح الرسالة موقف الصحف الأوربية من هذه الأفكار بالقول "وقد أسهبت الجرائد الشهيرة كالتيمس والدايلي كرونكل والديلي

تلغراف وأشهر جرائد النمسا في استحسان هذا الرأي وقالت إنه قريب المنال لأن الدولة العثمانية ترغب في إعمار بلادها، والدول الأوروبية لا تمنع فقراءها اليهود من ترك بلادهم والانتقال إلى البلدان الشرقية لكي ينشروا فيها المعارف ويوسّعوا التجارة والصناعة ولا سيما وأن اليهود قد اشتهروا بولائهم للدول التي تحميهم وتحسن إليهم فتجد الدولة العثمانية منهم كل ولاء وأمانة.

وتتساءل الرسالة في النهاية هل اهتمت "الجرائد العربية" في مصر وسوريا بهذا الأمر وما رأيكم في إمكان إجرائه؟

ويعد رد المقتطف على هذه الرسالة وثيقة مهمة، فهو يأخذ على الصحف العربية أنها لم تهتم بالموضوع، الاهتمام الواجب "لا يظهر لنا مما نطالعه من الجرائد العربية أنها اعتنت بهذا الأمر اعتناء خاصاً وإنما ذكره بعضها مع سائر الأخبار التي يذكرها".

عن الفكرة ذاتها فإن المقتطف تقدم وصفاً لما يجري في فلسطين وتحذيراً مما يمكن أن يحدث "اليهود الذين أتوا فلسطين حتى الآن أهل صناعة وتجارة.. وقد أفلحوا فيها وقبضوا على أكثر فروع التجارة والبيع والشراء، وإذا زاد عددهم قبضوا على كل موارد التجارة وأساليب الصناعة. أما الفلاحة فلا نظن أنهم يعكفون عليها لأنهم ليسوا أهل فلاحة في بلد من البلدان التي هم منتشرون فيها.." وقد أثبتت الأيام صحة الجزء الأول من التوقع حول سيطرة المهاجرين على الاقتصاد الفلسطيني، أما الجزء

الخاص بالفلاحة فلم يتحقق ذلك أن المهاجرين أقاموا المستوطنات والمستعمرات على أراضي فلسطين وقاموا بالزراعة.

ولكن على المستوى النظري لا يستبعد محرر المقتطف أن تزداد أعداد المهاجرين" .. وقد صار كل شيء ممكناً لأهل المال فلا يستحيل عليهم أمر إذا بادروه وعقدوا النية عليه. فإذا أنفق أغنياء اليهود في أوروبا على ابتياع الجانب الأكبر من أراضي فلسطين ونقل إخوانهم الفقراء إليها لم يتعذر عليه ذلك ولم يتعذر على هؤلاء الفقراء أن يعيشوا في فلسطين بالراحة والرخاء لأن الأرض وسيعة وخيراتها كثيرة وكانت تمون أضعاف أضعاف سكانها الحاليين.

عمليا لا يتوقع محرر المقتطف أن يتم ذلك" .. ونقل اليهود إلى فلسطين وابتياع الأرض من الحكومة ومن أصحابها أصعب من نقلهم إلى أرجنتين، ولذلك نستبعد نجاح الصهيونية، نحسب أن السعي لدى حكومات روسيا ورومانيا والبلغار في إصلاح شأن اليهود فيها أقرب منالاً لا سيما وأن طلب كفالة الدولة الأوروبية وحمايتهن لليهود الذين يراد نقلهم إلى فلسطين عقبة كبيرة في سبيل هذا الغرض لأن الدولة العثمانية لا ترضى به.."

يثبت الرد أن المحرر كان متابعا جيدا للفكرة الصهيونية آنذاك، فلم يكن أعلن أن أمر نقل اليهود إلى فلسطين قد حسم وتم تفضيل فلسطين على ماعداها، ويقدم المحرر مقترحاً أفضل يتمثل

في الاتصال بالحكومات التي يضطهد اليهود لديها كي توقف اضطهاد اليهود كان يهود روسيا تعرضوا لموجة من الإرهاب والعنف البالغ إزاء اغتيال القيصر فقد اتهموا بأنهم وراء تلك العملية، وشن القوميون الروس حملة ضارية ضد اليهود واعتبروهم مسئولين عن كل ما تعرضت له روسيا من أزمات سياسية واقتصادية، وامتدت الموجة إلى عدد آخر من بلدان شرق أوربا.

ونلاحظ أن المقتطف تتجاهل موقف ودور سكان فلسطين (الفلسطينيون) مما يجري على أرضهم وعليهم وربما اكتفت المقتطف باعتبار موقف الفلسطينيين جزء من موقف الدولة العثمانية.

وقد شغلت رسالة المقتطف "السيد رشيد رضا [(١)] فنقلها في "المنار" وعلق عليها .. وجاء التعليق من شقين .. الأول يتعلق

(١) ولد السيد/ محمد رشيد رضا في قرية "القلمون" علي شاطيء البحر المتوسط والغربية من مدينة طرابلس في لبنان، ونال تعليما إسلاميا علي الشيخ حين الجسر، وتأثر في بداية حياته بكتاب أبو حامد الغزالي "إحياء علوم الدين" وأتيح له أن يقرأ أعداد "العروة الوثقى" التي كان يصدرها الأفغاني ومحمد عبده، من باريس وأتيح له اللقاء مرتين بالشيخ محمد عبده في طرابلس، خلال زيارتين قام بهما الأخير للمدينة، فرغب في الاتصال به والتتلمذ عليه، وقرر الهجرة إلي مصر لهذا الغرض، خاصة وقد نال شهادة العالمية من شيوخه بطرابلس، ووصل إلي الإسكندرية في ٣ من يناير ١٩٩٨ ومنها إلي القاهرة حيث التقى بشيخه، وبعد عدة شهور من نفس السنة =

بالدولة العثمانية.. الثاني نداء إلى الأهالي والمواطنين أو القوم كما يسميهم.

كان رشيد رضا من المدافعين عن الدولة العثمانية والمؤمنين بها في مواجهة تيار آخر في مصر كان يدعو إلى الفكرة الوطنية وليس الجامعة الإسلامية، وقد وجد رشيد رضا في هجرة اليهود إلى فلسطين عاملاً يحسب لصالح الدولة العثمانية، كانت هجرة اليهود إلى فلسطين بموافقة الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد تحديداً وليس صحيحاً ما يزعمه العثمانيون الجدد بيننا من أن السلطان عبدالحميد وقف ضد هذه الهجرة وأنه فقد منصبه بمؤامرة يهودية لأنه رفض السماح لهم بدخول فلسطين، والواقع أنه سمح

=أصدر مجلة "المنار"- كانت الأمور سلسة في مصر - وكان إصدار الصحف والمجلات أمرا سهلا، وظل يصدرها حتي وفاته في عام ١٩٣٥، وكان رشيد رضا علي خلاف أستاذه من المساندين للدولة العثمانية، ويعد رأس الجناح السلفي في مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده، بخلاف الجناح المدني الذي مثله سعد زغلول ولطفي السيد وقاسم أمين.

وبرغم كثرة الدراسات حول السيد رشيد رضا، فلم يتوقف أحد - في حدود علمنا - عند رأيه وموقفه من الصهيونية، حيث انشغل الجميع بآرائه العقائدية وفي التفسير وموقفه من قضية الخلافة

ترك رشيد رضا مجموعة من الرسائل المتميزة، وحاول أن يكمل تفسير أستاذه للقرآن الكريم باسم تفسير المنار ولكن عمله الأهم هو كتاب "تاريخ الأستاذ الإمام" والذي صدر في ثلاثة مجلدات، وحاول فيه التأريخ لأستاذه محمد عبده وجمع فيه معظم مقالات الإمام وكل كتبه.

لهم وأعطاهم كافة الامتيازات، هو فقط رفض السماح لهم بالإقامة أو منحهم أي امتياز في المنطقة المحيطة بالمسجد الأقصى يقول رشيد رضا في تعليقه "إن المضطهدين في جميع ممالك الأرض يرغبون الجلاء إلى بلاد الدولة العلية ليكونوا في مأمن من الظلم والاضطهاد في ظل الحضرة السلطانية الظليل. وما ذلك إلا لاعتقادهم أنه ليس في بلاد الدولة من الغلو في التعصب وإيذاء المخالف ما في سائر الممالك التي يرغبون الجلاء عنها كروسيا وبلغاريا والتي لا يؤدون الجلاء إليها كبقية ممالك أوروبا.. "ويضيف مؤكداً المعنى السابق "إننا نرى جميع اليهود في بلاد الدولة العلية سواء، لا يرون فيها ثورة ولا شغباً ، ولا ينعون حرفة ولا كسباً ، ودانية عليهم ظلالها، ومساوية بينهم أحكامها، نعم، إن المرجح لاختيار اليهود فلسطين كونها بلاداً مقدسة وموضع آمال منتظرة، ولكن الأمن والراحة شرط للاختيار"، وهذا يعني أنه كان مطلعا علي الفكرة الصهيونية وملما بها، كما سوف يتضح فيما بعد.."

بعيداً عن الدولة العثمانية وما تنعم به من حرية واطمئنان وأمان، كما يرى رشيد رضا، ولم يكن الأمر على هذا النحو، صحيح أن اليهود لم يتعرضوا لما تعرضوا له في أوروبا، وبعيداً عن هذه الجزئية كان الاستبداد العثماني يصيب عموم الأهالي. ويرى رشيد رضا في هجرة اليهود إلى فلسطين رسالة أخرى تتمثل في "إيقاظ قوم قد رزأوا بالخمول وكاد يعمهم الذهول، واستلفاتهم

إلى الروابط المحكمة بين اليهود مع تفرقهم في الممالك وتشتتهم في الأقطار وكيف يمدون سواعدهم لمساندة إخوانهم ومعاضدة قومهم (..) ولم يصدهم تنائي الديار، عن الواصلة في الأفكار والتعاون بالدرهم والدنيار، الذي يحقق به كل أمل، ويناط به كل عمل." ثم ينطلق رشيد رضا في نداء مباشر إلى من يسميهم "القانعون بالخمول" وإن لم يحدد لنا من هم بالضبط، هل هم الفلسطينيون؟ هل هم العرب والمسلمون جميعاً..؟ ولأن خطابه كان موجها للمسلمين عموما فالأرجح أن التسمية تنطبق على الجميع ثم يتساءل "أترضون أن يسجل في جرائد جميع الدول أن فقراء أضعف الشعوب الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها، هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها وجعل أربابها أجراء وأغنيائها فقراء؟ ثم يطالبهم بالتفكر في المسألة.. "واجعلوها موضوع محاورتكم لتتبينوا هل هي حقة أم باطلة، صادقة أم كاذبة، ثم إذا تبين لكم أنكم مقصرون في حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم وملتكم فانظروا وتأملوا وتفكروا.. فإن في الخير شغلا عن الشر، وفي الجد مندوحة عن الباطل.."

سوف نلاحظ هنا أنه لم يتوقف ولم يشأ أن يتناول الصيهونية، هو فقط يلاحظ الهجرة اليهودية لفلسطين وتحدث عما رآه جانبها الإيجابي، وهو أن الدولة العلية محط أنظار الجميع، أما الجانب السلبي في القضية فيتعلق بخمول الأهالي ويطالبهم بالانتباه.

والنداء موجه إلي العموم وليس إلي أحد بعينه ولا إلي فئة بذاتها، والنداء أقرب إلي النصيحة منه إلي طلب القيام بعمل محدد، والملاحظ هنا أنه برأ الدولة أو أولي الأمر من أي تقصير أو خطأ، بل حاول أن يلصق ما تصوره إيجابيا في القضية بالدولة، أما التقصير والانتقاد فهو نصيب الأهالي، و لم يشأ أن يجهد نفسه ويبحث في جذور هذه الأوضاع، ولو فعل ذلك لاكتشف أن الدولة العلية هي التي تتحمل المسئولية كاملة، فعبر قرون من الاستبداد والتسلط فرضت الجهل عليهم وقطعت بينهم وبين والعلم الحديث، ولم تترك لهم حرية في القول أو العقل، وتصرفت هي باسمهم كذا لم يتجهوا إلي العمران ولم يحصلوا العلم بينما سبقهم غيرهم، ولم يكن رشيد رضا راغبا ولا حتى مستعدا لتوجيه أي لوم إلي الدولة، وهكذا جاء نداؤه عمومياً والاتساع وربما لهذا لم يتوقف عنده الكثيرون. ولعل رشيد رضا لم يكن قد استشعر خطراً كبيراً وراء تلك الهجرات، بل اعتبرها ظاهرة، يمكن أن تكون عابرة، ثم لا تلبث أن تذروها الأيام والسنوات، شأن العديد من الظواهر والحالات الاجتماعية والإنسانية التي تمر وتخبو، لذا فإن الطابع الأخلاقي ونبرة الواعظ هي التي سيطرت عليه في تلك الفترة وليس خطاب السياسي والوطني القلق أمام أمر يهدد مستقبل وطنه وأمته.

لكن السنوات تثبت تعمق وعي رشيد رضا بالمسألة الصهيونية ومخاطرها على فلسطين، بعد ذلك المقال بأربع سنوات - ١٩٠٢

- يعاود الكتابة في الموضوع بمجلته "المنار" وتحت عنوان (حياة أمة بعد موتها - جمعية اليهود الصهيونية) .

بدأ المقال بأنه كان يتحدث مع "صاحب الدولة "رياض باشا" أيام العيد، ولعل المقصود هنا رياض باشا ناظر النظار العتيد، الشهير بالاستبداد وكان عزله أحد مطالب عرابي ورفاقه من الخديو توفيق في مظاهرة عابدين .. المهم تحدث رشيد رضا مع رياض باشا في أحوال المسلمين وما يحتاجونه من إصلاح وتطرق الحديث إلى ذكر اليهود، وهنا ذكر رشيد "الجمعية الصهيونية ومساعيها في إعادة السلطة والملك إلى شعب إسرائيل" ويعيد التذكير بالمقال الذي كتبه قبل أربع سنوات "فإن أكثر قومنا ينسون النافع ويحتاجون إلى التكرار." ثم يدخل في الموضوع مباشرة وينعي على المسلمين أنهم لا يتدبرون أخبار الأمم ولا يعقلون الحوادث بحكمة وتبصر، ويقارن بين حال اليهود قديماً وحالهم اليوم وما جرى عليهم من تغيير، وحال المسلمين في الماضي وحالهم في الحاضر وما آل إليه حالهم وأمرهم.. ويتساءل "يا ليتنا كنا نبصر الطريق الذي يسير اليهود فيه الآن لنعلم هل هو طريق سلفهم الذين كانوا مغرورين بالنسب الشريف ، سلالة الأنبياء...؟ أم هو طريق آخر اعتبروا فيه بسنن الله في خلقه فحافظوا على لغتهم وجامعتهم الملية مع تشتتهم في جميع أقطار الأرض وتقرب بعضهم من بعض بالتعاضد والتعاون وأخذوا بجميع علوم العصر وفنونه النافعة وبرعوا في جمع المال الذي هو

أساس القوة والعزة في هذا العصر..؟ .. "ويقول أيضا" إن اليهودي الواحد اليوم أعز من ملك من ملوك الشرق .."

وينتقل إلى الحركة الصهيونية بالقول "لليهود جمعيات ملية كثيرة ولا نجاح للأمم إلا بالجمعيات، ولم نسمع بذكر الجمعية الصهيونية إلا من نحو خمس سنين وهي جمعية سياسية غرضها الاستيلاء على البلاد المقدسة لتكون مقر ملكهم وعرش سلطانهم (..) ولم تكن تظهر في أول الأمر طلب الملك وإنما كانت تتظاهر بحب نقل فقراء اليهود والمُخْزجين إلى بلاد فلسطين، ليعمروها ويعيشوا في ظل السلطان آمنين، وكأنها وثقت بقوتها الآن، فخرجت من مضيق الكتمان".

ثم يتطرق رشيد رضا إلى ذكر الواقعة التالية التي تدين السلطان عبدالحميد شخصياً وإن كان هو قد أمسك عن انتقاد السلطان أو إدانته واكتفى بالواقعة فقط"وقد بعثت منذ أشهر رأس الجمعية الصهيونية – المستر إسرائيل زنفويل من لندرة إلى الآستانة للمساومة في شراء القدس الشريف. ويقال، إنه لقي من الحضرة السلطانية التفاتاً وانعطافاً .."

ويتوقف عند كلمة ألقاها بعد ذلك المستر إسرائيل جاء فيها "إن اليهود سيرجعون بكثرة إلى فلسطين مملكتهم القديمة التي لا يمكن أن تغرب شمسها من سماء أفكارهم وسيبلغ عددهم فيها سنة ٢٠٠٠ أي آخر القرن العشرين المسيحي ألفي ألف نفس،

وسيجعلون تلك الأراضي جنات عالية قطوفهـا دانية وينشئون فيها حدائق ذات بهـجة ويصلون أطرافها وأرجـاءها بالسكك الحديدية ويقيـمون فيـها حكومة منتظمـة خاصة بهـا تكون نموذج الكمال.. فيـكون شعب إسـرائيل مناراً على جبل صـهيـون تهتـدي به الأمم كلها إلى المدنية الفضلى..." وينقل رشيد رضا أيضا من قول المستر إسـرائيل".. وغاية مـا يرمى إليه اليـهـود هو جمع النقـود الكافيـة لابتيـاع أرض فلسطين من السلطان الذي ستكون الحركـة الكبرى تحت سيادته.."

لا يكتفي رشيد رضا بذلك بل يقوم بنقل ترجمة عن الفرنسية لدعوة وجهـها فرع الإسكندرية للجمعـية الصهيونيـة إلى أعضائه للاجتـماع وعد تلك الدعـوة ".. من تصريح الجـمعيـة الصهيـونية بمقـاصدها السـياسيـة على رؤوس الأشـهاد .." وجاء في الـدعوة "إخوانـنا: عليكم نعتـمد في نجـاح المشروع الصـهيـوني في أرض مصر فلنـسلك مسالك إخواننا في الأقطار البـعيدة فقـد مهدوا لنا السبيل، فإذا أعضدناهم فساعة الفوز آتية بعد زمن قليل" .

بعد هذا كلـه يتساءل رشـيد رضا "مـاذا عسـانا نقول الآن في تنبيه قومنا إلى الاعتبار باتحاد اليهـود وسعيهم لاسترجاع مجدهم، بل لأن تكون لهم مملكة تقـتدي بهـا جميع المـماليك فيكـونوا أئمة للعالمين؟.. ويعيـد رشيد رضا نقل أجزاء من مقـاله السابق (العدد السادس من السنة الأولى) سنة ١٨٩٨ . ثم يكتب بنبره فيها الحزن

واليأس وقليل من الأمل وبعض الرجاء.." هذا ما قلناه من أربع سنين فماذا نقول اليوم؟ لا ينفع القول مهما بالغ المنذر في البيان، وأدلى بالحجة والبرهان، أو يزول ذلك الوقر من المسامع وتزاح تلك الغشاوة عن الأبصار وأعني بالوقر ما ملأ أسماع الناس وقلوبهم من إطراء الأمراء والحاكمين وإقناع النفوس بأن سعادة الأمة إنما تفيض من سماء عظمتهم فما عليها إلا الاتكال عليهم وتعظمهم وبذل النفس والنفيس في التقرب إليهم، وأعني بالغشاوة تلك التمويهات التي يغشون بها الجمهور ليطمئن إلى الأقوال ويغفل عن نتائج الأفعال، وليس من موضوعنا بيان نتائج سياسة كل أمير من أمراء المسلمين فمجموعها ما نحن فيه فإن لم يكونوا هم المبسلين للأمة والمضيعين لها بسلطتهم المطلقة فلا شك أنهم لم يحفظوها من الأبسال والهلكة.." وينبه رشيد رضا إلى أنه لا يقصد الدعوة إلى التمرد والثورة على هؤلاء الأمراء".. لا تريد من مقالنا هذا أن تخرج الأمة عليهم فإن هذا يكون عوناً للأجانب على سرعة الإجهاز علينا ولكننا نريد أن لا تعتمد الأمة عليهم بل تسعى بكل ما في طاقتها لتحصيل العلوم النافعة والثروة الواسعة والتربية الرافعة".

والواضح هنا أن رشيد رضا بات يائسا من الحكام والأمراء، ولذا يطالب الأهالي بعدم الاعتماد عليهم فلن يقوموا بشيء ولن يتحركوا، ويريد للأهالي أن يأخذوا هذا الأمر بيدهم ويتحركوا هم ويتخذوا موقفا، فقد ضيع الحكام الأمة بالاستبداد والسلطة

المطلقة، وحرموا الناس من الفعل والعمل، وهم أيضا لم يقوموا بحماية الأمة من التدخلات الأجنبية والمطامع في أراضيها، كما هو الحالي في فلسطين. ولعله هنا يلتقي في الفكرة مع معاصره عبد الرحمن الكواكبي والذي كان قد أصدر في العام نفسه كتابه المهم "طبائع الاستبداد" ومن شدة خشيته من جواسيس السلطان وعلى الدولة العلية لم يضع اسمه على الكتاب واكتفى باسم رمزي.

لكن هذا الإدراك والوعي الناصع لدى رشيد رضا لا يكتمل ولا يسير إلي نهايته، ذلك أنه ينبه ويعلن أنه ل يدعو ولا يطالب بالخروج على الحكام أو التمرد عليهم ولا القيام بثورة ضدهم، لأن ذلك لن يفيد سوى الأجانب، ولعل ثورة أحمد عرابي وما جرى فيها وما انتهت إليه من احتلال بريطانيا لمصر كانت في ذهنه وفي خاطره وهو يكتب، ولعله كان يؤمن نفسه وهو يكتب ذلك الكلام من كتبه التقارير والمخبرين الصغار الذي يفتشون في السطور وما بين السطور، خاصة وأنه كان تلميذا للأستاذ الإمام محمد عبده الذي تمرد علي الدولة العلية أيام عرابي، ولا يحمل الود لها ولا للسلطان نفسه .. أيا كان الأمر فإن رشيد رضا وضع الأهالي في موقف حرج يريدهم أن ينهضوا ويتحركوا ويؤسسوا الجمعيات ويكون لهم دور كبير، فكيف يتم هذا أو يحدث وهم محاصرون باستبداد الدولة وتسلطها، وهذا الاستبداد يعجزهم عن الفعل أو اتخاذ موقف ثم إنه لا يريدهم أن يصطدموا بالدولة ولا أن يتمردوا عليها!!

كان رشيد رضا في موقف بالغ الحرج، فهو ير ى الدولة عاجزة عن اتخاذ موقف قوي ورادع تجاه القوى الأجنبية التي تنهشها وهو يرى الدولة والسلطان شخصيا، يتفاوض مع الصهيونية ويبدي العطف والود تجاهها، وهو أيضا يرى التمرد على الدولة يعني مزيداً من الضعف ومزيداً من سيطرة الأجانب، هو مسلم تقي، تقليدي ومحافظ، ولكنه يرى استبداد الدولة وفسادها وهو أيضا وطني مخلص يدرك الخطر الصهيوني في فلسطين، وبين هذه الرؤى وتلك المخاوف كتب رشيد رضا محذرا ومنبها، لعل وعسى أن تفيق الدولة وأن يتحرك الأهالي، ولكن الواضح أن أحداً من الأمراء، أي الحكام، لم ينتبه بالقدر الكافي إلى خطورة الأمر، ولا انتبهت الأمة أيضاً، ولا قامت "جمعيات ملية" كما تمنى حتى الجمعيات التي قامت بعد ذلك شغلت بأمور وهموم أخرى.

وفي العام التالي مباشرة (١٩٠٣) يكتب في العدد السادس من المنار حول نفس الموضوع، يعيد التنبيه والإلحاح ".. ألم تر أن الذين تطردهم الممالك وتخرجهم من أرضها لا يجدون في الغالب ملجأ إلا بلاد الدولة العلية حتى بلاد فلسطين التي يطمعون أن يستقلوا بها ويحدثوا فيها ملكاً جديداً.."

وبين حين وآخر كان يعيد التذكير على صفحات "المنار" بالمسألة اليهودية والصهيونية في فلسطين، نفس الأفكار والمعاني

وإن اختلفت الصيغ وتنوعت الكلمات، لكننا نجد لديه جديداً في المنار سنة ١٩١٤، حين قامت الحرب العالمية الأولى، وقبل صدور وعد بلفور، كتب مقالا بعنوان "المسألتان الشرقية والصهيونية" تحدث فيه عن هجرة فقراء اليهود من أوروبا إلى فلسطين وطموحهم إلى بناء دولة يهودية على أرض فلسطين وندد بتخاذل العرب والمسلمين .. وأخذ على زملائه الذين" .. أكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتاب العرب.." بأنهم مازالوا في تناولهم لهذه الظاهر "يدورون حولها ولما يدخلوا فيها.." وينهي ذلك المقال بالاقتراح التالي" يجب على زعماء العرب أهل البلاد أحد أمرين: إما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونية على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد إن أمكن وهو ممكن قريب إذا دخلوا عليه من بابه، وطلبوه بأسبابه - وإما جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونية بكل طرق المقاومة، وأولها تأليف الجمعيات والشركات أو آخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة - وهو ما تحدث به بعضهم على أن يكون أول ما يعمل، وإنما هو الكي - والكي آخر العلاج كما يقال.."

باختصار يجب أن يكون التعامل جدياً وعملياً، بعيداً عن دور الشجب والإدانة الشفوية فقط، إما إن يكون هناك اتفاق وتعاون بين زعماء العرب وزعماء الصهيونية في فلسطين من أجل صالح الطرفين معاً، وبلغة أيامنا هذه "السلام" بين الطرفين، وهو متاح وممكن آنذاك - ١٩١٤ - وإذا لم يكن ذلك الطريق فليكن الآخر

وهو المقاومة الجادة، التي تبدأ بإقامة جمعيات ومشاريع لحماية أرض فلسطين وشعبها وقد يصل الأمر إلى المقاومة المسلحة.. لكن العرب، فيما يبدو، تعاملوا مع الاقتراح على أنه "كلام جرايد" فلا هم تعاونوا أو اتفقوا ولا هم قاوموا.. اكتفوا فقط بالصراخ والعويل في بعض المناسبات، ثم ينصرف كل منهم إلى دنياه الخاصة جداً، فكانت النتيجة الطبيعية ضياع فلسطين في عام ١٩٤٨ وفي عام ١٩٦٧ وظل يكتب رشيد رضا بعد ذلك عن المسألة الصهيونية حتى وفاته سنة ١٩٣٥ وله كتابات مهمة في ذلك قبل وفاته بحوالي العام.

تكشف معالجة "رشيد رضا" الأخيرة خاصة للمسألة اليهودية عن وعي ونضج شديدين ، يفتقدهما الكثيرون منا اليوم، خاصة في التيارات الدينية والقومية، فرغم أنه منتبه إلى مخاطر الصهيونية على فلسطين، ويحذر منها، فهذا لا يعني أن ينكر ما يتعرض له اليهود من اضطهاد ومعاناة في أوروبا، وكان قد كتب مقالا سنة ١٨٩٨ في مجلة "المنار" عن "اليهود في فرنسا" توقف فيه أمام ما أسماه "مسألة دريفوس وقضية زولا وما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة" ويرفض أن يكون التعصب الديني وراء تلك القضية أو تعصباً عاماً داخل الأمة الفرنسية "..كيف وهي أقرب إلى وهن العقيدة، منها إلى التعصب الذي مثاره الغلوفي الدين.." وعنده أن مصدر هذا الاضطهاد مجموعة من المثقفين وأصحاب الصحف يطمعون في الأموال التي في

حوزة اليهود وممتلكاتهم "..التعصب الجنسي والحسد الذميم آثارهما في صدور الأمة، فئة من أرباب الجرائد المعادين لليهود الطامعين بما في أيديهم من خزائن الأموال.."

ولا يفوت رشيد رضا أن يشير إلى أنه لو وقع في بلاد الشرق ما وقع في فرنسا من اضطهاد لليهود وموقف معادي لهم لخرجت الصحف الأوروبية "وسلقت الشرقيين وآدابهم بألسنة حداد وأقلام أنفذ من السهام" وهو يرى أن تلك الصحف لو كانت ضعيفة الجانب أو تصدر عن جماعات ضعيفة وأناس ضعفاء لكنها تصدر عن أناس يعبرون عن القوة ويمتلكون السلطة".. لكانت أسرع الناس طلباً للحرية المطلقة والعدالة العامة للبشر على اختلاف أجناسهم.." ويجد في هذا الموقف تأكيداً لمقولته "يستنجد الإنسان بالعدالة مظلوماً وينبذها ظالماً.."

ويبدو أن السيد رشيد رضا كان مثل أستاذه الشيخ محمد عبده معجباً بالفرنسيين، فقد قال محمد عبده إنه وجد هناك مسلمين بلا إسلام بينما وجد في بلادنا إسلاماً بلا مسلمين، لذا نجد رشيد رضا يقول في سياق قضية دريفوس ".. لا نرى عاقلاً من عقلاء الأمة الفرنسية راضياً عما نال اليهود في فرنسا من الاضطهاد قديماً وحديثاً وقد سمي ذلك بعض كبار فلا سفتهم مرضاً من الأمراض العارضة وأمل ذهابه بتقدم المدنية والآداب العمومية.."

ويندد بالصحف المصرية التي بدأت تساير الصحف الفرنسية في التحريض على اليهود وبث الكراهية ضدهم يقول "ومن الغريب أن داء الجرائد الفرنسية قد سرى إلى بعض الجرائد المصرية، فقامت تصلي اليهود ناراً حامية وتأخذ عليهم في مهاراتهم في الكسب وثقتهم في الربح.."

ويعلن موقفه الخاص هو ومن يمثلهم ، وهو موقف إنساني وعقلاني رفيع المستوى، يجعلنا نعيد النظر فيما هو سائد وشائع عن الشيخ رشيد رضا، يقول "أما نحن فرأينا أن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق. فإن التمدن الصحيح والعدالة الحقيقية يفرضان المساواة المطلقة بين جميع بني الإنسان في المنافع العمومية. والعمل والكسب بالطرق الشرعية فضيلة من الفضائل الاجتماعية وللإنسان أن يعمل ويربح بالطرق المشروعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ومن يعترض في ذلك فقد اعترض مبدأ الحرية العمومية.."

وينبغي أن تكون هذه العبارة دستوراً لنا جميعاً، فالحرية العمومية ليست لطائفة أو طبقة أو اتباع ديانة دون الأخرى، وتبادل المنافع داخل المجتمع يجب أن يخضع للمساواة المطلقة ومن حق كل إنسان أن يعمل وأن يربح طالما أنه يعمل في إطار القوانين والطرق المشروعة، ومن يعترض ذلك فقد اعترض الحرية في المجتمع، وقائل هذا الكلام ليس رفاعة الطهطاوي ولا هو لطفي

السيد أو قاسم أمين ولا شبلي شميل أو فرح أنطون ولا هو أيضا عبد الرحمن الكواكبي إنه الشيخ محمد رشيد رضا.

ثم يوجه الشيخ نداء إلى زملائه من الكتاب وأصحاب الصحف - في عصره كان الكاتب هو صاحب الصحيفة في أغلب الأحوال".. فالمأمول أن لا يدخل الكتاب في هيئتنا الشرقية عاملاً جديداً للنزاع والنزاع والشقاق فحسبنا ما لدنيا من تلك العوامل القبيحة. وإنا الآن أحوج إلى عوامل الاتفاق منا إلى عوامل الشقاق.." ويضيف "عسى أن يستفيد إخواننا الشرقيون، لا سيما المسلمون منه بما نقص عليهم من أحوال الأمم.."

وهو نداء مازلنا بحاجة إليه وما زال ينقصنا إلى اليوم، بعد ١٠٥ سنة، لكن ليس بيننا رشيد رضا ولا غير رشيد رضا لحمل هذا النداء من جديد.

ودلالة هذا النداء وما ينطوي عليه أن رشيد رضا حين اقترح في ١٩١٤ الاتفاق بين العرب والصهاينة أو الشروع بمقاومتهم، حتي لو كانت المقاومة المسلحة، لم ينطلق من عداء لليهود ولا تعصب ديني، فقد كان ملما بالمسألة اليهودية في أوروبا ومعاناة اليهود هناك، لكنه كان يرى أيضا ما يجري علي أرض فلسطين من ازدياد الهجرات الصهيونية والمشاريع التي يقومون بها، بينما في المقابل لا يحدث شيء .. لا من الحكام والمسئولين ولا من الوجهاء، كان الفعل للصهاينة وكانت الشكوى للعرب، والمعنى

أن المكسب والتقدم علـى الأرض للصهيانية والخـسارة أو التراجع من نصـيب العـرب والفلسـطنيين وهذا مـا يحـدث إلي اليـوم في صيف سنة ٢٠٠٦!!

الفصل

الثالث

3

شكيب أرسلان:

التخوف من دولة صهيونية...

وسواس؟

الأمير شكيب أرسلان، اسم معروف اليوم لدى كثيرين من المهتمين بالشأن العام، فهو صاحب كتاب "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ "والذي ما زال يطبع إلى اليوم، وتتسابق دور النشر في مختلف العواصم العربية على طباعته، واعتمدته بعض الحركات والجماعات الإسلامية من بين كتب التثقيف التي يجب على أعضائها التزود بها.. لكن أرسلان لا يمكن اختزاله في هذا الكتاب، فقد كان عزيز الكتابة، واسع النشاط، تنقل بين البلدان العربية وانشغل بقضاياها واهتم بالعالم الإسلامي وهموم المسلمين، كان عثمانيّ الهوى والتوجه وبعد انهيار الدولة العثمانية صار عروبياً دون أن يتخلى عن طابعة الإسلامي، ومنحه محبوه ومريدوه لقب "أمير البيان".

وبهذا المعنى فإن شكيب أرسلان (١٨٦٩ -١٩٤٦) انشغل

مبكرا بالمسألة الصهيونية والهجرات اليهودية إلى فلسطين، وقد أشار د. أحمد الشرباصي في سطرين بكتابه عنه أن هذا الاهتمام يعود إلى سنة ١٩٢٦، لكن مجلدات الأهرام والمقطم تثبت غير ذلك، إذ يعود اهتمامه بفلسطين والصهيونية إلى العام ١٨٩٩ - وكان وقتها كاتباً ناضجاً، واسع الانتشار، فالأهرام والمقطم، هما آنذاك، أقدم صحيفتين بارزتين في مصر واسعتا الانتشار، لم يكن يسبقهما في الانتشار سوي "المؤيد".. وتكشف مقالات أرسلان في هذا الجانب، عن رصد دقيق لما يجري في فلسطين ومتابعة لمجريات الأمور والأحداث بها، وكان على صلة بمعظم أطراف الأزمة، في الأهرام - عدد ١٥ مارس ١٨٩٩ - ينشر مقالاً حول ميناء ومدينة حيفا الفلسطينية بعنوان "حيفا بيروت الصغيرة" يتناول فيه تطور حيفا من قرية صغيرة مغمورة إلى مدينة وميناء

يقــارب من حـيـث الازدهار بيـروت، والمـهم في هذا المقـــال أنه يتعـرض في جانب منه إلى تواجـد اليهود بهـذه البقـعة - حيـفا - ونشاطهم بـها، هو هنا يحاول أن يسـجل الوقائع والأحـوال فقط، دون تجميل أو تقبـيح، فلا يحاول أن يطلق أحكاماً قاطعـة ومباشرة أو يتخـذ موقـفاً صريحـاً ومبـاشراً، هو يشيـر - فقط - إلى جـهد اليهـود في حيفـا، وما قامـوا به من عمران ومنشـآت يقول" ولابد لقاصـد حيـفا لا ينسى قـرية زمارين التي اخـتطها البـارون أدمون روتشيلد وأسكن بهـا نحو مئة عائـلة من جالية يهود رومـانيا فهي على مسافة خمس ساعات من حيفا إلى الجنوب".

زمارين واحـدة من المستعـمرات اليهـودية التي أقيـمت مبكراً على أرض فلسطـين، ويذكـر شكيب أرسـلان للقـاريء، أنه حين يدخل أرض زمارين سوف يمـيزها عما يحيط بهـا من مناطق بعدة أمـور "الغـرس والزرع وانتظام الـكل وإحـاطة جـمـيع البـسـاتين بالسيـاج البديع من العنبر وغـيره، وفي زمارين مـستشفى عـمومي وجميع ما يوجد في المدن، وهواء القرية لطيف."

هذا الوصف وإن بدا مـحـايداً ، إلا أنه يكشف عن إعـجـاب شديد وتقدير لما حـدث في زمارين، ولنلاحظ أنه في ذلك الوقت، نهـاية القـرن التـاسع عـشر، لم يـكن في كثـيـر من المدن العـربيـة "مستشفى عـمومي" ولا كان هناك "انتظام الكل" ، ليس هذا فقط، فـهناك بعض "المنافع" في السـهل الفـاصل بين الجبـل والبحـر في

زمارين، والمقصود بالمنافع هنا، الأراضي التي كانت مملوكة للدولة ومن المفترض أنها مخصصة للمنافع العامة، المهم أن اليهود أخذوا تلك الأراضي في زمارين، من الدولة، عبر السلطات المحلية، ممثلة في الولاة آنذاك، وكانت الدولة العلية هي التي تتولى اختيارهم وتعيينهم، ويتابع شكيب أرسلان ما قاموا به في تلك المنافع "اشتغلوا بتجفيفها وغرسوا ألوفاً من شجر الأكاليتوس" والواضح أنها كانت أراضي طرح البحر، على نحو ما هو معروف في مصر، وقد جففوها وزرعوها بالأشجار، أي استفادوا بها وهناك ميناء الطنطورة على البحر في زمارين، وقد استفاد به اليهود أيضاً فقد أقاموا فيه "معملاً للزجاج كأنهم تذكروا معامل الزجاج الفينيقية على هذه الشطوط".

وبعد حوالي شهر ونصف من نشر مقاله عن حيفا كتب شكيب أرسلان مقالاً آخر في عدد ٢٩ أبريل ١٨٩٩ بالأهرام ودخل هذه المرة في صلب القضية "سكني الإسرائيليين فلسطين" ونشر بالصفحة الأولى، حيث يذكر أنها من المسائل التي شغلت الباحثين وتتداولها ألسنة المتحدثين، ويتحدث عن اليهود قائلاً: "اشتدت رغبتهم في ذلك منذ بضع عشر سنة وزاد حنينهم إلى هذا الوطن الأصلي وتنامى ولعهم بالأراضي المقدسة إلى درجة أن دخل في خاطر الدولة العثمانية منهم ريب وخامر قلبها من ذلك شبهة فشرعت تسد في وجوهم الأبواب وتدفع في صدورهم إلى

الوراء.. وأخذت تعتني بصغير خطبهم خشية الوقوع في كبيرة وتقتلع غرسهم قبل نموه فكانوا كلما نزعوا إلى هذه البلاد أقامت الدولة دونهم حاجزاً وكلما هموا بالدخول ضربت من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا ينظرون من أرض الميعاد إلا بصيصاً ".

ولم يطلعنا على تفاصيل ما قامت به الدولة العلية لصد الهجرات اليهودية إلي فلسطين، واكتفى بذلك الوصف الأدبي البليغ والمبالغ فيه ..

ولا يدّعي شكيب أرسلان أن بإمكانه التوصل إلى حقيقة مقاصد اليهود من الهرولة إلى أرض فلسطين ولكن " لا شبهة في أن لميلهم هذا أسباباً معقولة وعللا في نفوسهم تستفزهم إلى الرحيل لفلسطين كلما تيسر ذلك لهم ولا تنكر أهمية هذه الأسباب.."

ويحاول أن يرصد ما يراه أسباباً لتلك الهجرة وعلى رأسها أن فلسطين هي البلاد المقدسة عندهم والبقعة الطيبة، وليس ذلك بمستغرب عنده لمن "قرأ تاريخ هذه الأمة وهو أعظم التواريخ اشتهاراً لكونه عبارة عن التوراة ".

وليس هذا هو السبب الوحيد الذي يدفعهم، فهناك أسباب وعوامل أخرى، ذلك أن حنينهم إلى هذه الأرض ورغبتهم فيها كانت قائمة دائماً ولكن "لم تكن شهوتهم إلى نزولها بالدرجة

التي عليـها الآن.. فلابد من ظـهور عوامل جـديدة، ربما يكون من أهمها ما تعرض له اليهود في أوروبا من اضطهاد أو ما حصل لهم منذ بضع عـشـرة سنة ولا يزال يحـصل في البـلاد الروسـيـة ومـا جاورها من الأصـقاع الصقليـة، من القهر والإعنات ومـا أصابهم من نكد العـيش وضنك الإقـامة في بعـض جهـات أوروبا مما ولد فيهم شـعور التضامن والتسـاكن في بلاد لا قهر فيـها ولا اضطهاد على بني إسـرائيل.. "يتـساءل: وأي بلاد أليق بـسكناهم على هذه الصورة من البلاد العـثمانية، وأي بقعـة أخذت بمجامع قلوبهم من هذه البقـعة التي فيـها بيت المقدس".. ويعـود شكيب أرسلان إلى التاريـخ، حين تعرض يهود أسـبانيـا للعنت والاضطهاد فـإنهم لم يجـدوا غيـر "ممالك الدولة العليـة" فأقـامـوا في الاسـتـانة وأزميـر وغيرها من المناطق والبلدان، يشير هنا إلي عـملية طرد اليهود، بعد هزيمة العـــرب والمسلمين هناك وطـردهم نهـائيـــا من "الأندلس"، وفوق ذلك هناك سـبب آخر دعا اليـهود إلى السعـي نحو فلسطين وهو أنهـا" كثـيـرة الخيـرات غزيرة مـوارد الرزق قليلة الزحـام مع عذوبة المنهل، مما جـعلهم أن يتوافدون على نزولها ويـذوبون شوقاً إلى استـيطان أكنافـهـا فـاجـتـمـع لهم بذلك دين ودنيـا وعـاجلة وأخرى.."

إلى هنا ليست ثـمة مشكلة، نحن بإزاء قـضية إنسـانية، أناس مضطهـدون وجدوا ملاذاً آمنا في دولة لا تضطـهدهم، وسكنوا في منطقة عزيزة عليـهم لأسباب عقائدية وديـنية، في مثل هذا الظرف

يجدون الترحيب ويفخر الكاتب بأن الدولة العلية ترحب باليهود، المشكلة ظهرت بظهور الصهيونية والحديث عن إقامة دولة ووطن لليهود على أرض فلسطين "بعض متحمسيهم في أوروبا وأميركا لم يقفوا عند هذا الحد ولا اكتفوا بالنجاة من الاضطهاد مع مجاورة مراقد الأنبياء والأولياء بل باحوا بما في صدورهم وحدثتهم أنفسهم بتأسيس مستعمرة وتأسيس ولاية وتألفت لذلك جمعية أسمها الصهيونية مقصدها إعادة ملك فلسطين واسترجاع أرض الميعاد وضم اليهود تحت راية واحدة في وطنهم القديم إلى غير ذلك من الخيالات التي شمل اليهود أثوابها.

يعتبر شكيب أرسلان إذن أفكار الصهيونية ومشاريعها في فلسطين مجرد "خيالات"، والقصد هنا التفية والسخرية من تلك المشاريع، وانكسار إمكانية تحقيقها، برغم أنهم تحدثوا بها.

وكان إعلان هذه النوايا والأهداف بمثابة "تحذير الدولة العلية من قبولهم في هذه البقعة المحدودة من الجنوب ببادية التيه ومن الشمال بجبل لبنان والواقعة بين مالح البحر المتوسط وعذب الجليل ومر البحر الميت وأباحت الدولة لهم سائر ولاياتها الفسيحة ليسكنوها ولم تجعل عليهم حرجاً في مكان من أرض تظلها راية الهلال إلا جوار البيت المقدس.."

ويتتبع ما قامت به الدولة كي تمنع اليهود من السيطرة على فلسطين فقد تمكنت جماعة منهم من الحصول على الأرض

بالشراء أو "برشوة بعض المأمورية.. وتوالت الإرادات السنية بمنع دخول اليهود وعدم تسجيل البيع لهم بشبر من أرض الميعاد وطالت مجاهدتهم وفي مقدمتهم كبارهم في أوروبا في أمر الحصول على موافقة الحضرة السلطانية فذهبت مساعيهم كلهم عبثاً ولم تزل العقدة غير منحلة".

ويذكر أن قادة اليهود مستعدون للقيام بأي شيء و"بذل النفيس" كي تنتهي تلك العقدة وربما كانوا مستعدين لسداد ديون الدولة العثمانية إذا سمحت لهم بالقدس الشريف"،ولنلاحظ هنا قوله " ربما كانوا مستعدين .." فهو يطلقها من باب التوقع، لكنها رويت فيما بعد على أنها حقيقة، إذ يرد لدى الكثيرين أنهم عرضوا بالفعل سداد الديون لكن السلطان عبد الحميد رفض، ولذا عوقب بالخلع، والواضح أنها ليست حقيقية، ويطرح شكيب أرسلان تساؤلات على جانب كبير من الأهمية وهو "هل إطلاق المنع لسكن اليهود في هذه الأراضي وتجمعهم فيها إخواناً متناصرين وجيرانا متراضين من السداد والصواب أم لا.." والإجابة السريعة والحاسمة أما بنعم أو بلا .. والواضح أنه يرفض الإجابتين يرفض السماح لهم بالشراء والتحلل كيفما أرادوا واستطاعوا ولديه أسباب في ذلك "إطلاق الحرية لهم في فلسطين يشترون في كل سهل وجبل ويبتاعون ما يشاءون فهو زعيم بأن لا يبقى في شهر واحد قطعة من هذه الأرض إلا وهي داخلة في ملك اليهود إذ تنهال عليها أموالهم وتنهل سحب روتشيلد وهيرسن.."

ويؤكد ذلك بالقول.. ولا يمضي شهر أو شهران إلا وقد عادت مملكة بني إسرائيل على أنقاض المملكة التي أخربها قيطس ولو بعد بضعة عشر قرناً.. وعلى هذا فإنه ليس من الحكمة إباحة الشراء لليهود أينما شاءوا ولا تركهم يتجمعون في بقعة إلى حد أن تتمكن سطوتهم وتعلو كلمتهم ويصير لهم صولة بين عدد الرجال ومدد المال".

وإذا كان إطلاق حق الشراء لا يجوز كذلك فإن المنع على إطلاقه أيضاً لا يجوز، ومن ثم فإن لديه اقتراحاً في ذلك".. يمكن للدولة أن تجري على نمط آخر في أمر قبولهم وإسكانهم حرصاً على المنافع المتأنية من وجودهم في هذه البلاد في جانب الخزانة العثمانية وذلك لا يتاح لهم في كل قضاء شراء أكثر من قرية واحدة.. ولا يجوز لهم ابتياع قرية عامرة وأن يكون جميع ما يشترونه خراباً لأجل أن يعمروه وأن يدخلوا جميعاً في الجنسية العثمانية كما هم جارون على ذلك إلى الآن وأن تؤخذ عليهم الوثق التي معها تؤمن غائلتهم.

وجودهم بهذه الطريقة لا يشكل أي خطر.." إذا وجد منهم في كل قضاء قرية واحدة أو قريتان فإن ذلك نقطة من غدير ولا يشعر بقوتهم القوم ولا يحسون بوطأة لهم وأكثر البلاد الجنوبية من الشام بلاد إسلامية محضة لو زدتها من اليهود وبقدر ما هي عليه الآن أضعافاً ما خرجت عن كونها إسلامية، وقد أثبتت السنوات

ومعـدلات الهجرات اليـهودية المتزايدة إلي فلسطين، أن هذه الثـقة لم تكن في مـوضـعهـا، فقـد تم تهـويد مناطق عـديدة،كمـا لحظ وأثبت جورجي زيدان فيما بعد

وعنده إن وجود اليـهود يحقق مكسـباً للدولة "لما كان اليـهود الداخلون في بلادنا يقبلون في الحـال التابعية العثـمانية كنا نكسب بهم رعية جديدة وكان لا يصيـبنا بسببهم من المشاكل مع الأجانب ما يصيبنا بسبب الأجانب المقيمين بين أظهرنا " ولا يصدر أرسلان هذا الكلام من فراغ بل من رؤيتـه لليهود في حـيفا" مـا ساقني إلى الاستزادة قليلاً من سكني اليهـود إلا ما رأيته من انتظام زمارين في قضاء حيـفا وما سمعته عن غـيرها من قراهم وحققتـه من استفادة بيت مـال المسلمـين من ارتفـاع أمـلاكـهم وريعـهـا ومـا أعلم من ضرورة ازدياد دخل الولايات وأهمية المسألة الاقتصادية عندنا".

ويشرح بالتفـصيل ما جرى في "زمارين" وعائده الاقـتصادي ويكشف عن ثقة بـكفاءة اليهـود ونشاطهم الاقتـصادي والمالي" .. إذا اتسع لنا أن نستفـيد من زراعة اليهود أو صناعتـهم وعمرنا بهم جانبـاً من أراضينا بدون أن يتمـثل لنا من ورائهم شبح سـياسي أو خـيـال ولو في الوهم فـلا تذهبن في الاحـتـيـاط أقـصى مـذاهب الوساوس ومن طلب الزيادة وقع في النقصان والبـلاد محتاجة إلى المال والعمارة واليـهود قوامون على هذه الأمور بلا مـراء وقد قيل أنه لما فارقوا أسـبانيا صارت جسماً بلا روح وقـد طردوا من فرنسا

مراراً في الغابر وكانت حكومتها تستدعيهم بعد ذلك شعوراً منها بالحاجة إلى وجودهم فيها لتحريك التجارة والأخذ والعطاء وليس الأمر واقفاً عند البلاد الأوروبية ، بل يذكر أن عمرو بن العاص حين فتح الاسكندرية بعث برسالة بهذا الفتح وعدد فيها محاسن المدينة المفتوحة من آثار العمران والملاهي والحمامات ويذكر أن بها "أربعين ألف يهودي يؤدون الجزية ".

ذلك قول رجل عملي، براجماتي النزوع في هذه المسألة، هو يرى أن هناك مبالغة لدى العرب في المخاوف السياسية من وجود اليهود في فلسطين، ويذهب إلي أن تلك المخاوف هي نوع من الوهم والوساوس، ويجب أن يتخلص العرب من تلك الوساوس، ويرحبوا بوجود اليهود، ذلك أن البلاد، والمقصودهنا فلسطين، ينقصها المال وتحتاج إلي العمران، والعمران هنا بالمعنى الذي قصده ابن خلدون وليس بالمعني السائد بيننا اليوم، تحتاج البلاد زراعة وصناعة وإقامة المنشآت وبناء المستشفيات وغيرها، وفي هذا كله اليهود هم الأقدر على تحقيق العمران ولديهم المال ..وقد ذهب إلي التاريخ يستنطقه بما يذهب إليه، ولكن الوقائع التي ذكرها يعوذها التدقيق.

وأهمية الفهم الذي يقدمه أرسلان، أنه رجل قريب من الدولة العلية، كان أحد رجالاتها تقريبا وعلى تفاهم معها وإيمان بها، فهل

يمكن أن نعد ذلك تعبيراً عن رؤية أو موقف لدى الدولة بإزاء هذه الهجرات في تلك المرحلة المبكرة - ١٨٩٩ - ١٩٤٦ هل كان هناك جدل في أروقة الدولة بخصوص هذا الموضوع؟، عموما كانت هجرات اليهود تتم بعلم الدولة وبموافقتها، وفي تلك الفترة كانت مساعي هيرتزل لدى الدولة العلية لتوسيع معدل الهجرة والتوسع في إقامة المستعمرات ، ولعلنا نتذكر رسالة الخالدي في نفس السنة إلي "هيرتزل". كان شكيب أرسلان بمعنى ما يعبر عن تفكير معين لدى الدولة، وكان يريد أيضا أن يهدئ من روع الأهالي في فلسطين، الذين أخذوا يضجون بالشكوى إلي الدولة من هؤلاء القادمين الجدد إلي أرضهم وديارهم، ثم اتجهوا بالشكوى إلي الصحف والمجلات العربية، وكانت الصحف التركية قد بدأت تثير هذا الأمر أيضا. والحادث أن الدولة باتت في مأزق بين شكاوى الأهالي وضجيجهم من جانب ومساعي هيرتزل من جانب آخر، وحاجتها إلي المال وافتقاد العمران من جانب ثالث، وهذا ما عبّر عنه أرسلان بوضوح.

وقد أدرك أن قوله وشرحه السابق قد لا يجد موافقة من آخرين في المجتمع العربي، أو يتصور بعضهم أنه جامل اليهود "وقد يظن الآن أن بعض اليهود كلفني بالمدافعة عنهم وتسهيل أمرهم والله يشهد أنني قد قرعت هذا الباب بسابق وجداني فقط.. ولكنني ممن يشعرون بحاجة البلاد إلى التقدم المادي.

لكن لم يحدث شيء مما توقعه أرسلان، فلم يتهمه أحد من الكتاب العرب، ولكن بقيت القضية قائمة ومثارة بين الكتاب، وظل اقتراحه ورأيه قائما والذي ينصح بالتوسع والاستفادة من قدرات اليهود وتميزهم في الزراعة والتجارة وجلب الأموال، مع تحفظه في منحهم حق شراء وتملك الأراضي بأي مساحة يريدونها وفي أي مكان يصلون إليه ...

وبعد أكثر من ١٢ سنة نجد نقدا وتفنيدا للاقتراح الذي قدمه أرسلان، ولم يأت ذلك - كما توقع - هو من الكتاب العرب ، بل جاءه من الجانب الآخر فقد قام عدد من "الكتاب الأسرائيليين" بالرد والواضح أن أرسلان نفسه لم يكن المقصود بالنقد ولكن الفكرة ذاتها هي التي كانت موضع انتقاد هؤلاء الكتاب والأدق رفضهم لها، فإذا كانت تطرح وتقدم تعاطفا مع اليهود المهاجرين إلا أنها تحمل رفضا للمشروع الصهيوني بالسيطرة علي فلسطين، والواقع أن الموضوع ظل مثاراً طوال هذه السنوات وقد اشتدت حدته، حين تناوله مجلس المبعوثين في استانبول، تقريبا كان البرلمان العثماني.

كان "الكتاب الإسرائيليون" كما أطلقوا هم على أنفسهم، يدافعون عن الصهيونية وتواجدها في فلسطين بلا قيد أو شرط، وكانوا يكتبون في الصحف العربية في مصر، يدافعون ويردون

على المتسائلين والمتشككين والرافضين للصهيونية، وسوف نلاحظ أن هؤلاء الكتاب لم يصنفوا أنفسهم كما كان سائدا، أي كتاب عرب أو مصريين أو شوام، بل انتسبوا إلي صفتهم الدينية، وهو ما لم يفعله غيرهم .. فلم يقدم شكيب أرسلان نفسه باعتباره مسلما درزيا ولا تقدم جورجي زيدان باعتباره مسيحي ولا رشيد رضا بصفته مسلما سنيا وهكذا.

أحد هؤلاء الكتاب الإسرائيليين هو "نسيم ملوك" الذي تناول الموضوع حيث نشر مقالاً في المقطم، عدد الجمعة ١٢ يناير ١٩١٢، حمل المقال عنوان "الخراب والعمران بيد الإنسان" وكان نسيم من كتاب المقطم.

حرص نسيم على أن يقدم نفسه في المقال باعتباره حريص على الصالح العام "أكتب الآن كعثماني حميم وليس كإسرائيلي لا يهمه سوى الدفاع عن أبناء جنسه، خربت البلاد أو عمرت، هذا لأنني لا أجد وطناً غير هذا الوطن الذي يجب علي أن أفديه بالغالي قبل الرخيص وبالروح قبل الجسم، ولهذا وجب على أن أبين كنه تلك الأضرار التي تنجم من وراء تنفيذ هذا القرار.."

ولم يكن هناك قرار قد اتخذ بشأن الصهيونية والهجرة اليهودية المتزايدة في فلسطين، لكن كانت هناك مطالبه للدولة العلية باتخاذ قرار ما للحد من تلك الهجرة، وكان الأمر قد طرح

في العام الغائت ١٩١١، على مجلس [المبعوثان]، وقد أثار الأمر النواب العرب في ذلك المجلس، وكان مبعوث القدس بالمجلس قد أثار تلك القضية - روحي الخالدي - واحتج على زيادة أعداد اليهود بفلسطين وانتشار السماسرة اليهود بها وأيده في ذلك المبعوثون العرب بالمجلس، وانتهى النقاش إلى قول وزير الداخلية العثماني "نحن مؤمنون بأن اليهود العثمانيين ليسوا على رأس دعاة الصهيونية، بل هم ضدهم.."[١] ولم يتخذ مجلس [المبعوثان] أي قرار، لكن النواب العرب كانوا غاضبين، وفي رأي نسيم ملوك أن الموضوع أعلن "لعدم ثبوت تلك التهم التي عزاها إليها بعض ذوي الأغراض أعداء الوطن .

لكن مع العام الجديد - ١٩١٢ - أعيد طرح المسألة من جديد وهذه المرة "ليس للبحث في مضارها ومنافعها بل لتقرير أمر هائل يؤدي إلى الخراب والسقوط في وهدة عميقة من الحياة الأدبية والزراعية والتجارية على إثر منع الإسرائيليين من الاستعمار ومحو اسم الصهيونية من سجلات دولتنا العلية."

ويتوقف نسيم ملوك في مقاله عند "يافا" باعتبار أنها مهبط الذي يسمونه الاستعمار الصهيوني في فلسطين منذ سنة ١٨٨٥" ويرصد بعض الأرقام المالية، حيث يقرر أن وارداتها بمبلغ ٣,١٩٢,٠٠ فرانك، أما صادراتها فبلغت ٤,٥ مليون فرانك

(١) راجع د. سهيلة الريماوي "الرواد العرب والقضية الفلسطينية".

وتعليقه هو أن "هذه الأرباح الطائلة من الإسرائيليين وبعبارة أوضح من الصهيونيين الذين يريدون إخراجهم من البلاد.." ويؤكد على ارتباط مصير الصهيونية بمصير الدولة العلية "أن سلامة الصهيونية بسلامة الدولة العثمانية فإن هددت الأخيرة بخطر ما وجب على الأولى معاونتها ومساعدتها مادياً وأدبياً إلى آخر رمق من الحياة.. ثم يتحدث عن أن الصهيونية مستعدة لتقدم كل مستلزمات الدفاع في الحرب الحاضرة لتركيا عند مساس حاجتها بكل الوسائل الممكنة.

والمقصود بالحرب الحاضرة هي حرب طرابلس أو ليبيا، حين كانت إيطاليا تسعى لاحتلال ليبيا، وكان نسيم ملوك واثقا من الدور الإيجابي والمهم للصهيونية لذا راح يتحدث في لهجة تحمل معنى التحدي والتهديد للدولة "لتجرب الحكومة نقل الصهيونيين من المكان الذي هم فيه الآن إلى مكان آخر وترى ماذا يصيب مكانهم الحالي من التأخر والتقهقر وماذا يكون نصيب المكان الجديد من التقدم؟

ويبدو أن إدارة "المقطم" كانت منتبهة لخطورة المقال ومدى استقباله لدى الرأي العام وتأثيره السيء على الجمهور، لذا أنهت المقال بالتعليق التالي "الحقيقة بنت البحث وكل عاقل عادل يطلب ظهور الحقيقة ومسألة الصهيونية مسألة كثر الاختلاف فيها وأصبح القراء يتشوقون إلى معرفة الحقيقة من أمرها.."

وفي عـدد الأتنين ١٥ يناير، كـان المقطم ينتسـر مقـالاً في الرد على ملوك كتبه شكيب أرسـلان وحمل عنوان "العثمانية والصـهيونية" ولم يكن المقال لمناقشة أفكار ونظريات بل للرد علـى الوقائع التي وردت في مـقـال مـلوك ، لكن هذا لم يمنع مـن أن يضع أرسـلان مقدمة أو محاذير قبل النقـاش لإثبات حسن النية، نيته هو إذ يؤكد على أنه طوال حـيـاته لم يكن "ضـد اليـهـود ولا من مـضطهـدي الصهيونية" بل إنه دائماً "استهجن مذهب اضطهادهم ولا أرى من إيطائهم بلادنا على شرطين أحدهما دخولهم في التـابعية العثمانية تماماً بدون تبديل أسماء وتقليب أزياء أي يظلوا صهاينة وعثمانيين في نفس الآن، ثم انتقل إلي مـسألة أخري وهي وضع نظام لقـضية شرائهم للأرض بحـيث يكون هناك حد محـدود .." ذلك حتى لا يؤدي فـتح الباب على مـصراعـيه لشـرائهم الأراضي إلى "تناقص الفـلاحين الوطـنيين، وتلقص ظل الأصليين بـدخـول الطارئين.." هذه المقدمة مـهمة حتى "لا يمكن اتهامي بالمـيل وحمل كلامي على التحامل.." ثم يدخل في التفاصيل، حيث يذهب إلى أن التحديث الذي جـري في يافـا وتطور الـزراعـة بهـا سـابق على الهـجـرات الصـهيـونية إليـها، فـقد بدأه الوطـنيون من أهل البلدة "اسـتعـمل العـثـمانيـون الأدوات الحـديثـة في بعض الأمـاكن بسائق السـير الطبيـعي وحركة التداخل مع أوربـا والمطالعة لأسباب التـقدم ولم يتـرتب ذلك على وجـود الصـهـيـونيـة. ويضـيـف مـؤكـداً "ليس الصـهيـونيون بآباء هذه المأثـرة أصلا بل هم جـاءوا ونسجـوا على

منوال الوطنيين واستفادوا وأفادوا، والتأسيس كان من غيرهم والزيادة المهمة هي بسعي سواهم وهم كانوا في الأمرين التالين لا السابقين .." ثم يقول "إن ترقّي غراس البرتقال في يافا هو من قبل استعمار الصهيونية بكثير وإن المسلمين والمسيحيين هم الذين أبصروا المهمة في هذا السبيل وزادوا إيراد البلدة وجوارها ورسوم الحكومة".

فالتطور وقعَ ليس بسبب الهجرة الصهيونية ولكن بالانفتاح على أوروبا ومطالعة الوسائل الحديثة،وقد قام به المسلمون والمسيحيون الوطنيون، والواقع أنه وكانت هناك تجربة للتحديث في المنطقة (الشام) منذ أيام حكم إبراهيم باشا، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والدليل الذي يقدمه أرسلان أن هناك داخل الشام بلدان شهدت نهضة ونمواً دون أن تقع بها ولا وصلت إليها هجرات صهيونية ولا نشاط صهيوني مثل "بيروت" التي كانت تنمو وتتحول بسرعة من قرية صغيرة إلى ميناء مزدهر على البحر المتوسط ومدينة حديثة، وكانت بيروت آنذاك مضرب الأمثال ولم تكن بيروت وحدها التي شهدت هذا الازدهار. ومع ذلك فإذا حدثت مقارنة بين ما قدمه الصهاينة للدولة وما استفادوا هم منها فإن فائدتهم أكبر بكثير وبتعبيره هو" .. وجدنا الريح في جانبهم " .

ويدخل أرسلان في جانب عملي آخر، إذ يطالب الصهيونيين

بتقديم الدليل على مدى وجدية صداقتهم للدولة بأن يقدموا العون المادي لها في حربها مع إيطاليا "الصهيونيون هم ذووا ثروة طائلة وقد جرت العادة أن اليهود بغزارة أموالهم ينقذون مثل دولة فرنسا الغنية، فلا يصعب عليهم إنجاد دولة مثل تركيا حاجتها أقل جدا لبلوغ أربها من فرنسا (...) الصهيونية هم قادرون على الجداء العظيم وإن الحاجة ماسة من كل وجه."

ويذكر أرسلان أن بعض الأوروبيين ساندوا الدولة العلية في حربها وقدموا لها العون في تلك الحرب "وهؤلاء هم نصارى وأوروبيون ولا يوجد لهم أغراض عند العثمانيين ولا ممن يستهوي أفئدتهم استيطان فلسطين، وإنما لبوا دعوة الوجدان الحي أجابوا نداء الحق المهضوم. فماذا فعل الإسرائيليون الشاميون الذين هم أدنى إلينا نسباً من الأوربيين لا سيما إلى هذه الأمة العربية كما لا يخفي".

وكلمات أرسلان تلك تعبر عن روح الاستجداء، حتى لا أقول التسول، إلي هذا الحدكانت الدولة قد انهارت والواضح أن شكيب أرسلان كان يحتكم في هذه المسألة السياسية الحساسة إلى اعتبارات عاطفية وأقرب إلي الروح القبلية حول الأقرب إلينا نسباً والأبعد، فالذين ساندوا الدولة العلية فعلوا ذلك لمصالحهم السياسية وفق التحالفات في ذلك العصر، وليس استناداً على الأقرب أو الأبعد.. ويبدو أن مقاله فتح شهية عدد آخر من الكتاب

الإسرائيليين للرد عليه ولتأكيد مطالبهم من جديد والإلحاح عليها، في عدد الخميس ١٨ يناير تنتسر المقطم رداً بعنوان" سياسة المنافع ، احتياج الاستعمار" كتبه "موسى دويك" من مصر حيث وجه الشكر والامتنان لأرسلان على حسن ظنه بالصهيونية وتجريده لها من المرامي السياسية وكفاه فخراً أنه عثماني صادق إذ لم يلتفت إلى الفوارق المذهبية .. ثم يقول " إننا قوم مها جرون لا صبغة سياسية لنا ،سننقل إلى بلادكم أناساً اجتاحتهم يد الظلم." ورغم قوله أنه بلا صبغة ولا أهداف سياسية يقدم عدة مطالب سياسية، يقول "ليست بلادكم الآن صناعيه ولا تجارية مع أنها قابلة لأن تكون كذلك، فهاتوا لنا أرضاً تستثمرها أيدي المهاجرين وتستغلها لإشباعهم ونحن نجزل لكم الأجر والثواب ونشد أزركم في الملمات فندافع عن بلادكم لأننا نعيش من أرضها ونذود عنها لأنها مقبرة آبائنا ومرضع أولادنا.."

يعرض دويك صفقة محددة، مفادها إن كنتم تريدون المساندة المالية وغيرها في الحرب مع إيطاليا أو ما قد يليها من أزمات فعليكم أن تقدموا لنا الأرض كي يستثمرها المهاجرون الذين سيفدون إليكم، وفي غمز واضح يقول إن بلادكم ليست صناعية ولا تجارية، رغم أنها صالحة لذلك، أي أن العيب والقصور فيكم والعجز منكم، فاتركوها لنا نجعلها لكم صناعية وتجارية..!!

ونفس المعنى الذي قدمه دويك يقدمه كاتب آخر وقع باسم

"نسيم بن سهل" نشره المقطم أيضاً بعنوان "آل صهيون"، جاء فيه" ولكم رأينا الفوائد العائدة من المهاجرة الإسرائيلية لترقية الدولة كزيادة عدد السكان وارتقاء التجارة والصناعة واستثمار فلسطين بأيدي الإسرائيليين، يد تزرع وتهب لمساندة الدولة حين الحاجة بالرجال والمال".

وكأن كل الشرح والإيضاح الذي قدمه أرسلان حول النهضة وتطوير الزراعة بأيد وطنية وشرحه لتجربة بيروت كلام بلا معنى ولا يستحق التوقف عند ملوك وابن سهل فما زالوا عند قول ملوك الأول.

كثرت الردود على أرسلان ولم تخرج جميعها عن الأفكار والمعاني السابقة، لكن أحداً منهم لم يتطرق لمناقشة الشرطين الذين وضعهما أرسلان كضوابط للهجرة الصهيونية، الوحيد الذي قام بالرد وتناول اقتراح شكيب كان نسيم ملوك نفسه الذي نشر له المقطم مقالاً آخر بعنوان "حقائق ثابتة في العثمانية والصهيونية" توقف فيه حول الشرط الأول وهو ضرورة دخول المهاجرين الجدد في الرعوية أو التبعية العثمانية بالحصول على جنسيتها، وكان رأي ملوك أن هذا حادث بالفعل، فالمهاجرون الصهيونيون يحملون الجنسية العثمانية وهكذا فقد صاروا بسهولة عثمانيين، ومن ثم فلا يستحق هذا الجانب التوقف عنده.

أما الشرط الثاني وهو الأهم الذي يتعلق بوضع ضوابط

وحدود لأعداد المهاجرين، حتى لا يطغى عددهم على أعداد أبناء البلد ولا يصبحوا هم الأغلبية فتنقلب الأمور، يصبح الفلسطيني ابن البلد غريباً ومنبوذاً بينما المهاجر الصهيوني يمتلك الأرض ويزرعها ويصبح هو المالك الفعلي وصاحب البلد، وقد تعامل نسيم ملوك مع هذا الشرط بنفس الخفة التي تعامل بها مع الشرط الأول، فقد اكتفى بالقول "..إنا لا نرى له وجوباً"، أي أن يفتح باب الهجرة وليأتي إلى فلسطين من يشاء من يهود العالم، ولا يهم إن صاروا هم الأغلبية بتلك الديار والبلاد، كانت الكلمات والعبارات واضحة وضوح الشمس أمام الجميع، بلا مواربة ولا محاولة للإخفاء، الأهداف واضحة ومعلنة والأدوات مكشوفة للجميع، والحديث في العلن على صفحات الصحف، وليس بين جدران مغلقة ولا في منشورات سرية.

واستدعت تلك الردود من شكيب أرسلان معاودة الكتابة من جديد.

وهكذا كتب مقالا نشره المقطم بالعدد الصادر يوم الجمعة ٢٦ يناير ١٩١٢ بعنوان: لم يبق بد من الجواب.

وأتاح له هذا الرد أن يعيد تأكيد أفكاره السابقة وأن يعيد إثبات حسن نيته تجاه وجود اليهود في فلسطين وتجاه الصهيونية وأن يناقش معهم بعض القضايا المعلقة، وكان ودوداً وهادئاً في ردوده واستعمل كلمات مثل "إخواننا الإسرائيليين" واندهاشه

الشديد من كثرة ردودهم عليه رغم "علمهم بجميل رأيي فيهم وطهارة نيتي في حقهم" . ويفهم تلك الردود على أنها نوع من الاستفزاز أو الرغبة في أن يتخذوها مناسبة لعرض قضيتهم التي تشغلهم " على الملأ العثماني ويتخذون هذه الفرصة سبيلاً للعتاب والتواجد وليبثوا ما عندهم في هذه القضية التي هي في نفوسهم منها أكثر مما في نفس الفراء من حتى".

وهو يقدر ويتفهم الموقف الصهيوني في هذا الجانب "لا أنكر شيئاً من اجتهاد الصهيونيين ولا يمكن ألا أفقه حنينهم إلى البلاد العثمانية ولا سيما على أرض فلسطين."

ويريد أن يطمئن اليهود وكتابهم إلى أنه لم يغير موقفه وما زال على رأيه الأول وهو "عدم الانقباض منهم والتعنت في دخولهم" ويعلن أنه ليس لديه أصلا أي شك في إخلاص الإسرائيليين عموماً للدولة العثمانية وتمنيهم لها كل الخير واعتقادهم إياها الملجأ الأصح والكهف الأدرأ وأنهم لا يفضلون عليها دولة من دول الأرض إلا أن عادت دولة سليمان التي يتهمونهم بالسعي في تجديدها.. والجملة الأخيرة مقصود بها الكتاب العرب الذين يتخوفون من السيطرة الصهيونية على فلسطين وهو كما سبق أن أشار، لا يرى هذا الرأي، ولا يحمل لهم ذلك الاتهام، بل رفض وسخف منه ويحاول أن يطمئن هؤلاء بالقول ". أظن ان الإسرائيليين الموصوفين بالذكاء هم أحسن فهما

من أن يأملوا إحـراز فلسطين وتجـديد دولة ومملكـة فيـهـا وهم بين المسلمين من جهـة وبين النصارى من جـهة أخرى.. " ولأنه مـقتنع بذلك الفـهم يذهب إلى "عدم جواز الـتخوف من دولة صـهيـونية وأعتقد أن هذا التوهم وسواس بغير محله".

لكن الذين يتخـوفون لا يتوهمـون ولا يعيشـون في وساوس كما يتـصور هو، بل لديهم أدلة وقرائن غير زيادة الهجـرة والإقامة في فلسطين فقد كانت المؤشرات الأولى لتـأسيس وإقامة الدولة قد ظهرت للعيان.. مثل أنهم "عثروا لـهم على عملة خاصة تدور فيما بينهم في أخذهم وعطائهم وعلى طوابع بريد مخصوصة تدل على بعيد مرماهم السياسي".

فإذا كانوا قد وضعوا عملتـهم الخاصة فيما بينهم ولهم طوابع البريد الخاص ولا يتعاملون بالعملة المتداولة في المجتمع الفلسطيني الذي يخضع للدولة العثـمانية ولا يتعاملون بطوابعـها.. فهل هناك مـؤشـر أوضح من ذلك..ومـاذا يتبـقى بعـد ذلك من إخـلاصـهـم المزعوم والذي يثق أرسـلان بوجوده للدولة العـثمانيـة وأين كانت تلك الدولة من هـذا كله؟ لكن أرسـلان يفند ذلك بحـجـة واهيـة وهي أنه "شخصـياً لم يلحظ ذلك" لم أشاهد بعينـي سكة مضروبة ولا طابعـاً مطبـوعـاً من هذا القـبـيل.. وحـتى لو صح ذلك وثبت وجـود سكة وطوابع فـإنه لا ينهـض دليـلاً على النيـة في تأسـيس الدولة، يعلن بثقـة ".. لا أراه كافياً لتأييـد الزعم ولا مستحـقاً لهذا

القلق كله إذ إن الدولة الإسلامية التي تحرز الآن بيت المقدس وما حوله ويكون من قبلها المسلمون أنفسهم حراساً لكنيسة القيامة وبأيديهم مفاتيح قبر المسيح عليه الصلاة والسلام ودول النصرانية كلها التي بيدها مفاتيح قبر المسيح عليه الصلاة والسلام ودول النصرانية كلها التي بيدها زمام الأرض اليوم ناظرة إلى ذلك بعين القبول لا يخشى عليها من الإسرائليين أن ينتزعوا منها البيت المقدس ويعيدوا ملكاً وينصبوا ملكاً ".

وإذا كان الحال بهذه الدرجة من البساطة، وحسن النية متوفرة إلى ذلك الحد والثقة بالدول الأوروبية واليهود ليست لديهم أي أطماع ولا طموح لتأسيس الدولة فما هو مصدر القلق وأين تكمن المشكلة..؟

يجيب شكيب أرسلان نفسه وكأنه يتحدث بلسان الدولة العلية إذ يثبت مخاوفها هي ومحظوراتها "أن الذي يحذره العثمانيون ينحصر في أمرين.. الأول أن اليهود يأتوننا من البلاد الأجنبية فتزداد عندنا علاقات الأجانب مع مالها من الذيول الطويلة واللوازم والتي تحرم الحكومة العثمانية الراحة".

وكانت الدولة العثمانية تعاني فعلاً وجود الجاليات الأجنبية مع ما يتمتع به أفرادها من امتيازات ضخمة فقد كانت لهم محاكمهم وقوانينهم الخاصة والقناصل يتدخلون في كل كبيرة وصغيرة ويصبح المواطن الذي يحظى برعوية أجنبية فوق القانون

بل فوق الـدولة فعليا، كـل فرد منهم كـأنه دولة بذاتها صـحيح أن الدولة هي التي منحت الامتـيازات الأجنبية لعـدد من رعايا الدول الأجنبـية لـكن الدولة العثـمـانية كـانت بلغت حـالة من الضـعف والتهرؤ تعجزها عن أن تقف في وجه أي ضغوط أجنبية أو ترفض أي ابتزاز في هذا الجانب والحكايات كثـير في مختلف بقاع الدولة معروفة ومريرة .

هل نذكـر هنا واقـعـة الملطي في الأسكندرية مع الحـمّـار ابن البلد، حـيث طعنه الملطي ورد علـيـه الأهالي، فـقـامـت مـذبحـة الإسكندرية واتخـذتها بريطـانيا ذريعـة مبـاشرة لضـرب المدينة ثم احتلال مصر كلها!

الرد الإسـرائيلي على تلك الملاحظة وارد ويتـوقـعه أرسـلان وهو أن الأجـانب الذين يهـاجـرون إلى الدولـة العليـة، يحـملون جنسـيتـهـا بمجـرد أن يصلوا إليـهـا ويصـيروا من مـواطنيهـا أو من رعـاياها، وهذا لا ينهي المشكلة بـل يبقـيـهـا وربما يزيدها.. "أنهم بوصـولهم يدخلون على هذا الشـرط ويقدمـون أسمـاءهم لدائرة النفوس على أنهم عثـمانيون ونقول أننا ربحنا رعـية جديدة. لكن بعـد مدة إذا احتـكت الأشغـال ظهر للحكومـة أن من دخلوا على أنهم عـثمـانيون هم تبع للدول الأجـنبيـة ويقال أن منهم من يبـدل اسمـه فإذا طالبوه بالاسم الذي أعطاه لـدى الدخول أنكره وتمسك بالاسم الحقيقي وجاء من ورائه قنصله يقول إن هذا من تبعة دولتي

فلا سبيل لكم عليه "ومضى أرسلان ليكمل رصد الواقع" ومهما يكن من المبالغة في هذا القول فإن كثيراً من مهاجري اليهود في القدس وصفد وطبرية ويافاهم أجانب ولم يزالوا أجانب مع شرط قبولهم عندنا هو أن يتحولوا عثمانيين. ولم يكن بقاؤهم في التابعية الأصلية بغضاً للدولة العلية لا والله لا نقرر ذلك. بل حباً بالنفوذ والقوة فإنه مما لا شك فيه أن الأجانب يتمتعون بامتيازات عظيمة في البلاد العثمانية ليست للعثمانيين أنفسهم على أنه كما يحق لهم أن يبحثوا عن مصلحتهم يحق لنا أن نسأل عن مصلحتنا وراحتنا".

أما الأمر الثاني الذي يثير مخاوف العثمانيين فهو أن "الصهيونية غنية وأموالها ديمة لا تقلع ومادة لا تنقطع وعند أبنائها أرض فلسطين هي القدس الأقدس. فإذا سمحت الدولة للصهيونيين أن يشتروا فيها ما شاءوا ويسرحوا ويمرحوا كما أرادوا وأشرعت لهم الباب بمصراعيه لم يمض عليهم سنة واحدة أو حتى سنتان حتى يستغرقوا الأراضي كلها بسيل أموالهم الجارف ويصبح الفلاحون بدون أراض ويضطرون للرحيل وترتبك الدولة في أمرهم. فإن قلنا إنه لا ينبغي للحكومة أن تكره الإسرائيليين فلا يكون معناه أنها يجب أن تضر المسلمين والمسيحيين".

ويتخيل أرسلان أن الرد على هذا الاعتراض سوف يكون بأن "الصهيونيين لا يمكنهم أخذ كل الأراضي والأهالي لا يبيعونها

(١) يقصد هنا الحرب مع إيطاليا حول طرابلس في ليبيا.

وكـيـف يبيـعون أوطانهم وأين يـسكنون من بعدها.." وجـوابه هو على هذا الرد أن " .. الفلاح لا يبعد عنه شيء فـهو متى احتاج باع بأبخس الأثمان فكيف إن صح لـه أكثر من قيـمة أرضه وأن كثـيراً من أصحاب المزارع من تجار وأعيان إذا أعجـبهم الثمن لم يتوقفوا في البـيع أيضاً فـيدخل اليهـود ويحلون محـل فلاحيـهم ويذهب الفـلاحون يبـتغـون مضطرباً في جنبـات الأرض وقد لا يجـدون فيهجرون البـلاد إلى أميركا إلى غيرها فماذا نكون اسـتفدنا؟ نقبل أجانب لنرحل عثمانيين ونبدل بدلاً ليس من الصواب في شيء".

ويكشف أرسلان في هذا الرد عن مـوقف ارستقـراطي ساذج أنه هنا يتـحـدث كـأمـيـر، ولعل تلك نظرة الأمـيـر إلى الفـلاحين وتصـوره لهم على أنهم على استـعداد لبـيع الأرض أو أي شيء، لقد استعمل كلمة " الفلاح لا يبعد عنه شيء" ،وتلك كانت مقولة الأمراء وكبـار الملاك، الغريب أن إسرائيل نفسـها سوف تردِّد تلك الحجـة فيما بعـد، وسوف تدعي أن الفلاحين الفلـسطينيين باعوها أرضهم!!

أما الحجـة بأن الفلاحين لن يجدوا لهم مكاناً فـيما بعـد، فهو تبرير أكثر سذاجة فلن يذهب الفـلاحون الفلسطينيون إلى أميركا، ولـم يكن بـحـاجــة إلى هذا "اللـف والدوران" ذلك أن كلمـات الكتـاب الإسـرائيليين والقـادة الصـهـيـونيين آنذاك كـانت مـعلنة وواضحة في أنهم يريدون فلسطين" وطناً قومـياً لهم ودولة خاصة بهم!!

ويحاول أرسلان أن يبحث عن حل لهجرة اليهود المتزايدة إلى فلسطين ويقدمه كالتالي "وإن قيل إن عند الدولة أراضي واسعة جداً فيمكنها أن تسكن فيها الفلاحين المذكورين.. الأولى أن يبقى هؤلاء الأكارون في أماكنهم لأنهم أقدم وأن مثل تلك الأراضي الواسعة البائرة تباع إلي اليهود فيعمرونها ويستفيدون هم منها ويفيدون الدولة والبلاد ولا يضرون أحداً فالأراضي التي هي من هذا النوع لا أرى مانعاً من إسكان اليهود بها ولا أزال مع ضعف رأيي وعجزي متمسكاً بعدم الضرر منهم فيها بل بوجود المنفعة وأنه مهما كثروا في الأراضي المهملة والمحارث المعطلة فليس على الدولة منهم أدنى خطر بل تزداد بهم خراجاً ومرفقاً".

وهذا الاقتراح هو ما كان يتمناه الصهاينة ويسعون نحوه، وتلك هي مقولتهم "أرض بلا شعب" ومع كل هذا فإنهم يمتلكون القرى والضياع في غير الأراضي البور، ويعددها أرسلان نفسه "على أن الدولة قد سمحت لهم بقطع صالحة مما يريدون وإن لم تكن تركتهم يركضون في جياد الاستيلاء على كل ما يشتهون وها هم في يافا لهم عيون قارة وعدة مستعمرات يقطنها قرابة خمسة آلاف نسمة من المهاجرين" وبعد ذكر العديد من قراهم ومستعمراتهم يقول "لا يمكنهم أن ينكروا سماح الدولة وحسن قبولها وإن كانت لم ترسل لهم العنان كما يشاءون..

ويعاود شكيب أرسلان تأكيد ثقته بإخلاص الصهاينة للدولة

العثمانية ولبلادها: فأما أنهم محبون للدولة فلا عجب فيه والدولة هي آمن ملجأ لهم قديماً وحديثاً وهم يحنون إلى بلادها علماً منهم بطهارة نيتها بحقهم لهذا لم نعجب من ميل صحفهم إلى الدولة في الحرب الطرابلسية [(١)].

ويفيض في الحديث عن تلك الحرب ويعيد الإلحاح على ما ذكره قبل ذلك من وأن بعض الأوروبيين ساندوا الدولة العلية ضد إيطاليا في تلك الحرب بينما الصهاينة أعلنوا عن المساعدة والمساندة فقط، لكنهم لم يقوموا بمساندة فعلية "إننا نحب أن نقف على الأرقام لأن الحرب تلزمها الأرقام كما لا يخفي".

وكان بعض الكتاب الإسرائيليين قد أثاروا أن الجمعية الصهيونية عرضت على الدولة قرضاً مالياً ضخماً يفيدها في الحرب، لكن الدولة لم ترحب، ويبدي هو تخوفاً من أن يكون القرض مشروطاً بتملك الأرض يقول "وأما كون الصهيونية تصدت لإمداد الدولة بقرض ولذا وقع الرفض من الدولة فأخشى أن يكون القرض هذا معلقاً بشرط إعطاء أراض فلا يكون قرضاً حسناً حينئذ وينقلب إلى شكل آخر وتقوم قيامه الأمة على الباب العالي فهو معذور إذا توقف عن الاستقراض بهذا الشكل.

وفيما يكاد أن يكون تسولا أو طلب صدقة واحسان للدولة يقول .. إن شاء الصهيونيون أن يقرضوا الدولة بدون وضع

(١) يقصد هنا الحرب مع إيطاليا حول طرابلس في ليبيا

مشروع أراض على بساط البحث.. أن يقرضوها كما تقرضها المصارف المالية كالبنك العثماني مثلاً وأن يثبتوا بذلك محبتهم لها ويرضوا بفائض خفيف ويزدادوا بهذه الخدمة زلفي لديها فأنا أضمن أن الباب العالي يقبل حينئذ القرض وينفعهم ذلك في المستقبل، عنده وتصير الأقوال مقرونة بالأفعال.. ولا نعرف هل هذا من باب حسن النية أم السذاجة بل البلاهة وليس في السياسة معونات ولا قروض مجانية كل شيء بثمنه ومن يطلب المعونة والقرض وهناك من يتربص به فعليه أن يكون متيقناً أنه سوف يدفع الثمن أضعافاً . كيف فات ذلك على شكيب أرسلان؟ وهل ذلك الاقتراح صادر عنه هو أم تلك رغبة الدولة؟ فلم يكن ممكنا لكاتب أن يتحدث هكذا أو يقترح اقتراحا للدولة من تلقاء نفسه ودون تفاهم مع الدولة.

لذا فإن الكتاب الإسرائيليين واجهوا الأمر الذي أثاره بحجة أن ليس كل المسلمين في العالم قاموا بمساندة الدولة العلية في حربها مع إيطاليا، وتوقفوا أمام المسلمين في روسيا، الذين لم يعاونوا الدولة ولم يمدوها بالمال .. ولا نعرف لماذا توقفوا تحديدا عند المسلمين الروس ..؟! ونلاحظ أنهم يعتمدون العنصر الديني فقط في أي قضية يتناولونها أو أي نموذج يتناولونه ويهملون العنصر الوطني والقومي. ولأن هذا البعد لم يكن ناضجاً - آنذاك - لدى أرسلان فإنه لا يستطيع الرد عليهم . "هذا خارج عن

الصدد. إذ نحن في البحث عن إعانة الصهيونيين لا عن مسلمي روسيا والعدم من جهته لا يصبح دليلا للإثبات من جهة أخرى".

ورغم كل الملاحظات والانتقادات فإنه كان مرحباً بمجيء الصهاينة والخلاف فقط في بعض الإجراءات وبعض المواقع التي يشغلونها.

الفصل

الرابع

4

جورجي زيدان :

لن يمضي زمن طويل

حتي تصير فلسطين لليهود

لم تكن هجرة اليهود إلى فلسطين وبروز الفكرة الصهيونية غائبة عن كاتب في نشاط ودأب "جورجي زيدان" صاحب ومحرر "مجلة الهلال" .. وبدت هذه القضية على صفحات الهلال منذ سنواتها الأولى، حتى لو كانت إشارات سريعة خاطفة، ففي عدد أول مايو ١٨٩٤، بعد أقل من عامين على تأسيس "الهلال" ، نجد باب "الحوادث الخارجية" يجعل موضوعه الرئيسي خبراً بعنوان "مهاجرة اليهود إلى القدس" ، وصاغه جورجي زيدان على النحو الآتي: " كتب الأسقف بليت مطران الكنائس الإنجليزية في القدس والمشرق كتاباً يؤخذ منه أن عدد الذين هاجروا في السنين الأخيرة من اليهود إلى بيت المقدس وغيرها من بلاد فلسطين يبلغ مئة ألف نفس" وبالرجوع إلى الأرقام والإحصائيات عن هجرة اليهود إلى فلسطين، حتى وقت صدور عدد الهلال، نجد أن الرقم الذي فهمه

واستنتجه زيدان من كتاب الأسقف فيه قدر كبير من المبالغة، ففي سنة ١٨٨٠ بلغ عدد اليهود في فلسطين (٢٥ ألف) نسمة أو نفس بتعبير ذلك الزمان وفي سنة ١٨٩٠ زاد الرقم إلى ٣٥ ألف وبعد عشر سنوات ، في مطلع القرن العشرين - ١٩٠٠ - وصل تعداد اليهود في فلسطين إلى ٥٥ ألف نفس، والزيادة كبيرة وتعود إلى الهجرة، لكن زيادة أعداد اليهود في بلد مثل جنوب أفريقيا في نفس السنوات كان يتجاوز ذلك المعدل بكثير[١].

هذه المبالغة الشديدة في صياغة الخبر وإبرازه علي هذا النحو ينم عن القلق والانتباه لخطورة الظاهرة لدى جورجي زيدان، ولعل

(١) الإحصائيات عن الملحق الوثائقي في كتاب د. عبدالوهاب الكيالي "تاريخ فلسطين الحديث" ، صفحة ٣٧١ ، الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر - طـ ١١ سنة ١٩٩٩ .

هذا الانتباه كان دافعاً للرحلة التي قام بها جورجي زيدان إلى فلسطين قبل وفاته (توفى ١٩١٤) وهو قام بزيارته في صيف سنة ١٩١٣ وقدم تغطية ثقافية لهذه الرحلة على صفحات الهلال في عدة أعداد متتالية .. وكان قد مهد لهذه التغطية بدراسة تاريخية عن فلسطين، عدد أكتوبر ١٩١٣، ودراسة أخرى عن "الصهيونية .. تاريخها وأعمالها" - عدد نوفمبر - بدأها بالقول أن "الصهيونية دعوة اجتماعية سياسية انتشرت في الأمة الإسرائيلية بأواخر القرن الماضي وكثر تحدث الناس فيها بالأعوام الأخيرة ، وقد همنا أمرها على الخصوص في أثناء رحلتنا بفلسطين.." ويتطرق إلى هدف تلك الدعوة أو الفكرة "ولابد لكل دعوة اجتماعية أو سياسية من غرض ترمي إليه. وغرض الصهيونية جمع الشعب الإسرائيلي في فلسطين وجعلها وطناً خاصاً به، وهي مبينة من الوجهة الدينية على آيات جاءت في سفر أرميا.. "ويستطرد زيدان في ذكر النصوص الدينية وما ترمى إليه ويستدرك قائلاً " على أن هذه الأقوال وأمثالها لا تكفي لإجماع الأمة على العمل بهاإن لم يتوقع أصحابها نفعاً اقتصادياً أو سياسياً من ورائها أو أن يدفعهم للعمل جوع أو اضطهاد أو ظلم". وعنده أن العقيدة وحدها لا تكفي لتحريك الناس وإنما يحركهم النفع والمنفعة" كم من اعتقاد يعتقده الناس ولا يجتمعون للعمل به لعجزهم عن ذلك أو لعدم الاضطرار إليه؟ وإنما يجتمعون للعمل في ما يرون لهم فيه مصلحة حقيقية، ويتذرعون إلى الاجتماع غالباً بأسباب دينية يتوكأون

عليها ويؤلونها إلى ما يساعدهم على ذلك القيام.."

وهنا لابد أن يثور التساؤل عن الدافع الذي دفع اليهود إلى هذا الاتجاه، ويحدده زيدان في أمرين أثنين "الأول تمكن الروح الملّية من نفوسهم على أثر الارتقاء الاجتماعي والعلمي في العالم المتمدن، فإن شيوع الحرية الشخصية ولدّ في نفوس الأمم عصبية عنصرية غلبت على الجامعات الأخرى .." ويدلل زيدان على ذلك بسعي المجر للاستقلال عن النمسا والاضطرابات في البلقان.. أما الدافع أو المحرك الثاني فهو ".. مبالغة الأمم النصرانية في امتهان اليهود باسم (الأنتسميزم) " "Antisemitizm ومعنى اللفظة "مقاومة الساميين [1] لكنهم يريدون بهم اليهود خاصة.." هذا كله انتهى إلى "اجتماع كلمة اليهود بأوروبا وفيهم طائفة حسنة من أصحاب الأموال ورجال السياسة والعلم وأهل الهمة والنشاط فأخذوا يبحثون في الدفاع عن أمتهم، وآنسوا في أنفسهم القدرة على العمل بتلك الآيات فوجهوا عنايتهم إليها فأخذ كتّابهم يحرضون قومهم على الاستعمار في فلسطين للتخلص من اضطهاد الأمم لهم ، وقال بعضهم إذا لم يكن ابتياع فلسطين ممكناً فلنطلب وطناً في مكان آخر على وجه هذه البسيطة".

ولم تظهر الصهيونية فجأة لتلبي تلك الأهداف أو الدوافع، بل سبقتها ما يسميه زيدان "الجمعيات الخيرية الإسرائيلية" مثل

(١) تعرف الآن اصطلاحا معاداة السامية أو العداء للساميين.

"جمعية الاتحاد الإسرائيلي" التي قامت سنة ١٨٦٣، لكن كان غرض هذه الجمعية تهذيب الشبيبة اليهودية وتم استنهاض جمعية اليهود الإنجليزية في لندن وكذلك جمعية اليهود في برلين، ومن ذلك النشاط تم تأسيس "الجمعية العمومية الفلسطينية وجمعية الاستعمار الفلسطيني "لكن هذه الجهود لم تحقق الهدف الذي قامت من أجله واتجه بعضهم بالبحث إلى مكان وبلد آخر غير فلسطين، وإن لم تمت فكرة السعي إلى فلسطين، كات تلك الفكرة تمتد وتقوي في هدوء وبلا ضجيج، وبعد شرح مفصل يصل زيدان إلى أن ".. روح الصهيونية أخذت تتمكن من قلوب اليهود. وهم يزدادون تمسكاً بالعنصرية كلما زاد مقاوموهم بشدة (..) وأول جمعية أفلحت في استثمار أرض فلسطين نشأت سنة ١٨٧٩ ولما التأم المؤتمر الإسرائيلي سنة ١٨٨٤ للنظر في أحوال المستعمرين والأخذ يناصرهم حضره مندوبون عن خمسين جمعية فازداد القوم نشاطاً. وبلغت الحركة أشدها سنة ١٨٩٤ أو أوشكوا أن يبلغوا غايتهم لكن العثمانيين انتبهو لأغراضهم فحالوا بينهم وبين ما يريدون، ولم يستقر عملهم على قواعد متينة إلا بعد ظهور الدكتور تيودو - هرتسل صاحب الدعوة الصهيونية" ويصفه زيدان بأنه "رجل نمساوي شديد الغيرة على العنصر الإسرائيلي عالي الهمة قوي الحجة ويستعرض آراء وأفكار هرتسل التي قدمها في كتابه الصادر في باريس سنة ١٨٩٥ وعنوانه "الوطن الإسرائيلي" وقد واجهت دعوة "هرتسل بعض المعترضين، ليس

على الفكرة ذاتها ولكن على بعض حيثيات هرتسل في دعوته، ويحددهم جورجي زيدان بأنهم "طائفة كبيرة من الحاخامين في روسيا وألمانيا والنمسا وانكلترا عارضوه في باديء الرأي لأنه لم يعتبر الوجهة الدينية من المسألة كما ينبغي. ولأن أتباعه أكثرهم من الشبان المتنورين واتهموهم بكل قبيح. وكان المسيحيون أشد عطفاً على الصهيونية من أولئك الحاخامين فنصروهم بأقلامهم وألسنتهم.. ونتج عن موقف " الحاخامين" ذلك، مشكلة أخرى وهي ".. مسألة التعليم لأن الحاخامين اعتبروا نشر العلوم العصرية من قبيل الخروج عن الآداب الدينية. وأشاعوا أن الصهيونية من آلات الكفر..[1] " لكن هرتسل كان عملياً وذكياً واستطاع استقطاب الحاخامات واسترضاهم "فلما انعقد المؤتمر الثاني رأي هرتسل من الحكمة مسالمة رجال الدين فاعترف أن الصهيونية تشمل السعي في إحياء شعائر الدين فضلا عن الاقتصاد والسياسة..

لكن في المقابل وجدت آراء هرتسل إقبال وترحيب عدد من الجمعيات اليهودية المنتشرة في أوروبا" .. وأول من فعل ذلك جمعية اليهود النمساوية فوقع بضعة آلاف منهم سنة ١٨٩٦ على خطاب يطلبون فيه تأسيس جمعية يهودية في لندن. غير من أخذ برأيه وتعصب له من الناشئة المتألمين من مقاومة اليهود.."

(١) هناك جماعة يهودية ترى هذا الرأي إلي اليوم وتعتبر أن وجوة اليهود في دولة خاصة بهم مخالف لمشيئة الرب، وهذه الجماعة تتركز الآن في مدينة القدس وخارجها أيضا.

ويستعرض زيدان تطور هذه الفكرة ومساراتها في الواقع ويدرك أن المتابع سوف تصبيه الدهشة من "نجاح هذه الدعوة في هذه المدة القصيرة. لكنه إذا علم الفرصة والوسيلة هان عليه ذلك.." ثم يستعرض المؤتمر الأول الذي دعا إليه هرتزل في بازل سنة ١٨٩٧ .. حضرة نيف ومئتا عضو بعضهم يمثلون جماعات وكانت الأذهان متأهبة لقبول الدعوة فلم يكتفوا بإعلانها – وهي إيجاد وطن شرعي للشعب الإسرائيلي في فلسطين - بل بحثوا في الوسائل المؤدية إلى نشرها وتأييدها فقرروا لذلك ثلاث وسائل من أرقى الوسائل المؤدية إلى النجاح وهي :

١- إحياء الآداب العبرانية ونشرها .

٢- إنشاء مدارس لتعليم اللغة العبرانية .

٣- إنشاء مالية مشتركة لليهود .

"وأخذوا بعد انفضاض هذا المؤتمر في تأييد هذه القرارات بنشر الكتب وإلقاء الخطب في اللغات العبرية والألمانية والفرنسية والإنكليزية والعربية. وشكلوا عمدة للاستعمار الإسرائيلي.."

وفي العام التالي مباشرة - ١٨٩٨ - انعقد المؤتمر الثاني ومن خلاله اتضح أن "الجمعيات الصهيونية القائمة بذلك العمل تضاعفت كثيرا وأصبح عددها ١١٥٠ جمعية . فأخذ أعداؤها يتقربون منها وآمن بمبادئها كثيرون من رجال الدين. وتقرر في هذا المؤتمر تعيين جمعية خاصة بالاستعمار غرضها توسيع نطاقه وأن

تكون اللغة العبرانية هي لغة اليهود حيثما وجدوا .." ، وفي المؤتمر الثالث الذي عقد في بازل أيضاً تبين أن عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا فقط ٨٧٧ جمعية وعدد المنخرطين فيها "٢٥٠,٠٠٠ نفس" أي ربع مليون إنسان، وفي ١٩٠١ تقرر عقد مؤتمر كل سنتين عدا المؤتمرات الفرعية خلال السنتين".. وقرروا إنشاء مكاتب للمطالعة ومدارس وتأليف دائرة معارف عبرانية"..

في ١٩٠٣ انعقد المؤتمر السادس للصهيونية في بازل وتقرر فيه" إرسال لجنة إلى أوغندة تبحث عن هل تصلح تلك البلاد للاستعمار. وقرر تحصيل ٢٠٠٠٠٠ جنيه لشراء أرض في فلسطين وسوريا .. "في العام التالي توفى هرتزل" وانتخبوا مكانه رئيساً الدكتور نوردو".. لكن الحدث الأهم في ذلك العام هو أن "عرضت انكلترا .. على الصهيونية أرضا في شرق أفريقيا الإنكليزية على سكة حديد أوغندة بين نيروبي وملو لأجل إنشاء مستعمرة يهودية مستقلة بأحكامها تحت رعاية الدولة الإنكليزية وقضيت لجنة للبحث فقررت أن البقعة ضيقة لا تكفي فرفضوها.."

ومن قرارات المؤتمر السابع" من حيث العمل في فلسطين السعي في التنقيب عن الآثار وترويج الزراعة والصناعة وتحسين سائر الأحوال الاقتصادية، وترقية الحياة الاجتماعية اليهودية وغير ذلك.."

وكان آخر مؤتمر عقد في نفس السنة -١٩١١- بمدينة فيينا" .. جاء فيه أن الصهيونية سائرة على قدم النجاح وأن سلامتها مرتبطة بسلامة الدولة العثمانية لأن المسألة اليهودية والمسألة العربية متفقتان.. ومن بين قرارات ذلك المؤتمر تقرر "إنشاء جامعة في أورشليم لتعليم العلوم العالمية باللغة العبرانية وفي جملتها اللغات الشرقية والفلسفة القديمة والحديثة.." (١)

أما المؤتمرات الفرعية فكانت تعقد باستمرار في مختلف أنحاء العالم المتمدن ويفاجئنا زيدان بأن من بين هذه المؤتمرات مؤتمر "عقد في زمارين من أعمال فلسطين - قرية مجاورة لمدينة حيفا على شاطئ البحر المتوسط- حضره ٥٠ عضواً وكان شرط الدخول في الجمعية خمسة قروش يدفعها الطالب وقسموا فلسطين من حيث الصهيونية إلى ست مناطق وتقرر تأليف جمعيات وفروع للأخذ بناصرها.."

ويستعرض زيدان الجانب الاقتصادي للصهيونية، خاصة أن ولديها بنوك أو مصارف مالية تتبنى أهداف الجمعية من بينها "المصرف اليهودي الاستعماري وغرضه سياسي. وهو أهم أدوات الجمعية في موضوعها الأساسي والغرض منه تنشيط الاستعمار الإسرائيلي في فلسطين وسوريا وسائر أنحاء تركيا في جزيرة

(١) تأسست هذه الحامعة بالفعل وهي الجامعة العبرية في القدس، وهي قائمة إلي اليوم منذ افتتاحها في الثلاثينيات من القرن العشرين.

سيناء وقبرص .. وله شعبة في يافا باسم الشركة الإنكليزية الفلسطينية لها فروع في أكثر مدائن فلسطين.. هناك أيضاً "البنك اليهودي الملي والغرض منه جمع رأس مال يكون ملك للصهيونية يستخدم لابتياع الأرضين في فلسطين واشترطوا أن رأس ماله لا يتم حتى يبلغ ٥٠٠٠ جنيه وقد زاد الآن على ١٢٠٠٠٠ جنيه.."

والجمعية الصهيونية لها فروع في مختلف أنحاء العالم حتى في الصين واليابان وتركستان والفلبين فضلا عن بلاد أوروبّا وأميركا، ولديها صحف ومجلات ومطبوعات ويرى أنها "أشبه بدولة ديمقراطية منها بجمعية سياسية اجتماعية".

كانت دراسة جورجي زيدان للفكرة الصهيونية والموثقة بالكثير من المعلومات والتفصيلات المهمة تمهيدا لنقل صورة للواقع على أرض فلسطين، كانت فلسطين آنذاك جزءاً من سوريا، كان هو من لبنان أي آنذاك من سوريا، لذا نجده وهو يتحدث عن فلسطين يستعمل كلمة "بلادنا" ، وحين يتحدث عن "ثروة بلادنا الطبيعية، يلاحظ أن هناك مناطق غير مستغلة اقتصادياً، فهناك السهول يمكن زراعتها والجبال أيضاً يمكن استغلالها بغرس الأشجار فيها وتعيش على مياه المطر.. وهناك أمر آخر" استلفت انتباهنا ولا عذر في إهماله غير الجهل وفساد الحكومة" هذا الأمر يتعلق بالسهول الخصبة بين حيفا واليرموك، أهمها مرج ابن عامر وساحته كما يذكر زيدان نحو ١٠٠ ألف فدان، وخوربيسان

ومساحته ضعفي المرج، ويقول عن الخور "هو من الجفالك التي كانت لعبد الحميد (يقصد السلطان عبدالحميد) واستولت عليها الحكومة وتعرف بالمدورة.." ويحكي زيدان الواقعة التالية "لما كنا في حيفا بالصيف الماضي[1] كان هذا الخور معروضا للبيع وقد اجتمع أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتاً.. ولا يفوت زيدان أن يلفت انتباه القاريء إلى أن سكان هذا الخور هم جميعاً من الفلاحين والعرب، وهم جميعاً من المسلمين .. ويضيف أيضاً أن "بعض أغنياء الوطنيين أرادوا مشترى بعض أرض الخور .. ونفهم من ذلك أن المقصود هم الأغنياء الشوام، ويبدو أن الأمر لم يقف عليهم بل امتد إلي بعض الأغنياء المصريين وإن لم يحدد لنا أسماء الذين تقدموا للشراء، وليته فعل ".. وقد همَّ غير واحد من أهل الثروة بمصر وغيرها لابتياع بعض تلك الأرضين لأنها رخيصة جدا بالنظر إلى أرض مصر. ويقدر الفدان الواحد ببضع جنيهات لو كان في مصر لبيع ستين أو سبعين جنيهاً. لكن في استغلاله شقة لقلة الرجال وضياع الأمن بسبب العرب البدو. ولابد من تخطي هذه العقبة يوماً من الأيام ويظهر فضل تلك الأرض. لكننا نخشى أن لا تأتي تلك الساعة قبل فوات الفرصة بالنظر إلى الوطنيين لأن اليهود باذلون جهدهم في ابتياع

(١) نشر هذا المقال، عدد الهلال إبريل ١٩١٤، وكان هو في زيارة فلسطين، صيف سنة ١٩١٣.

أراضي فلسطين حيثما تيسر لهم ذلك بكل وسيلة ممكنة بمساعدة الجمعية الصهيونية.. ولعله كان محقاً حينما ألقى بمسئولية هذا الأمر على الجهل وفساد الحكومة.. طبعاً جهل الأهالي..!! لكن ملاحظات زيدان تثبت أن أهالي المنطقة أو من يسميهم "الوطنيين" كانوا منتبهين إلى مخاطر إقدام اليهود على شراء الأراضي لكن أحداً من المسئولين لم يتخذ الإجراءات الكافية تقول "ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فإنهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها ويعولون في استعمارها على أحدث الطرق الفنية من حيث الغرس أو تشييد المنازل أو تنظيم الشوارع.. ويضيف "شاهدنا في يافا محلة أو مستعمرة إسرائيلية أسمها تل أبيب أدهشنا ما رأيناه فيها من نظام الشوارع واتقان البيوت في بنائها على الطراز الصحي.. ويقدم رصدا دقيقا لتل أبيب وكأنه يرسم خريطة .. شوارعها وبيوتها وأشجارها ثم يذكر وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكني اليهود وهي تؤجرهم إياها بطريق الاستهلاك بشروط سهلة بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة.. ويضيف كانت هذه البقعة في الأصل صحراء قاحلة فابتاعتها تلك الشركة وبنتها وأخذت في استثمار ما وراءها بغرس الكروم وغيرها..

تل أبيب ليست إلا نموذجاً فقط ولكن "أصبحت المستعمرات اليهودية فيها - أي فلسطين- تعد بالعشرات بجوار يافا والقدس

وحيفا وغيرها. منها ما بنى قرب المدن مثل تل أبيب ومنها ما هو من قبيل الغارس للكرم والبرتقال. غير المعامل لاستخراج الخمور أو صب الحديد وغير المدارس للزراعة والصناعة وغيرها.." وبتحديد أكثر .. ".. أحصى بعضهم عدد هذه المستعمرات في اليهودية والجليل والسامرة والأردن وما يليها فزادت على أربعين مستعمرة يختلف سكانها بين بضع عشرات إلى بضع مئات أو بضعة آلاف. وفيهم الوطنيون (١) والألمان والروسيون والأسبان وغيرهم. تجمعهم جامعة بني إسرائيل. ومما يستحق الانتباه أن أعمال هؤلاء المستعمرين في منازلهم أو معاملهم أو مغارسهم أو مخازنهم مبنية على أحدث الطرق العلمية..

من الناحية العلمية يلاحظ زيدان أن "التعليم على الإجمال ضعيف في فلسطين مثله في معظم الممالك العثمانية بل هو في فلسطين أضعف مما في سواها. ويصدق ذلك على المدارس الوطنية الأميرية وغير الأميرية.." لكنه في المقابل يثبت أن "الأجانب لهم في فلسطين مدارس كبرى لتعليم أهل تلك البلاد وتثقيف عقولهم" ويقوم برصد عدد من المدارس الوطنية وكذلك المدارس الأجنبية، وعدد طلابها وخريجيها، ثم ينتقل إلى مدارس اليهود .. ويقطع بأن "لليهود شأن خاص في فلسطين من حيث التعليم مثل شأنهم في الاقتصاد وأسباب المعاش . واليهود في هذا العصر

(١) لعله يقصد بهذه الكلمة اليهود الفلسطينيون أو العرب، فقد كانت كلمة الوطنيون تستعمل لدى بعض الكتاب آنذاك بمعنى أبناء الوطن في مقابل ا لأجانب.

ينافسون الأمم الأخرى بأقوى عوامل المدنية وأهم أسباب النجاح. نعني المال والعلم والاتحاد. أما المال فهم مشهورون باقتدارهم على جمعه وإحرازه من قديم الزمان. وهم يبذلونه الآن في سبيل مطامعهم الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين. ويبذلونه أيضا في سبيل التعليم. وأما الاتحاد فإنه عماد أعمالهم.."

ويقوم زيدان برصد حال مدارس اليهود بالقول "لليهود مدارس كثيرة في فلسطين ليست لسواهم بعضها على النسق القديم تعلم التوراة والتلمود والبعض الآخر يعلم العلوم الحديثة. فالمدارس القديمة منها في القدس وحدها عشرات، عدد معلميها ٢٠٠ معلم وتلاميذها نحو ٤٠٠٠ تلميذ وكلهم يهود ومنها خارج القدس نحو عشرين مدرسة أكثرها في يافا، عدد معلميها كلها ٥١ معلماً وتلاميذها ١٤٠٠ طالب..".

وينتقل إلى المدارس الحديثة التي تقدم لتلاميذها العلوم العصرية "أول من أنشأها لليهود جمعية الإليانس في فلسطين. فيها كلها نحو ٢٠٠٠ تلميذ وهناك مدارس أخرى لجمعيات أخرى أو بعض الأفراد. ويذكر بعض المدارس في القدس لكنه يتوقف أمام مدرسة "تل أبيب" في يافا لبيان مبلغ تقدم اليهود في فلسطين عن سائر أهلها من حيث التعليم.. وقد قام بزيارتها وأدهشه فيها عدة أمور الأول "أنها مدرسة كلية كبرى تعلم العلوم العالمية الطبيعية والرياضة فضلاً عن التاريخ والجغرافية والآداب وتعلم اللغات

العبرانيـة والفرنساوية والتركـية والعربية . وأدهشه ثانـياً أنها تعلم العلوم باللغـة العبـرانية كـما تـعلـم الكلية الأمـيركـية في بيـروت بالانكليزية ومدرسـة الآباء اليسوعيين بالفرنسـاوية. أي أن مدرسة تل أبيب تعلم الطبيعـيات والكيمياء والرياضيـات والتاريخ وسائر العلوم العالية باللغة العبرية فقط.

كل شيء في المدرسة، الكلية باللغة العبرية، حتى الخرائط في قاعة الجغرافية عليها أسمـاء البلاد، الأنهار والجبال باللغة العبرانية، وحـينمـا طلب أن يطلع على برنامج الكلـية فـوجيء أنه مكتـوب بالعبرية أيضاً. وحين سأل رئيس (عمـيد) الكلية عن طريقة التعليم وقبول الـطلاب بها وهل ذلك القبول قـاصر على اليهود فـقط فرد عليـه "إنها عمـوميـة لا ترد طالباً مـهمـا يكن دينه أو جنسه لكـنها تشتـرط عليه أن يكـون متمكنـاً من اللغة العـبرانيـة وآدابها ليتـعلم العلوم بها. وكـان رد.. جورجي زيدان عليـه "أن هذا الشرط أدنى إلى مـصلحـتكم من الرفض لأن مـن يدخل مـدرسـتكم على هذا الشرط من غير اليهـود لا يلبث أن يكون قريباً منكم. لأن من يتعلم آداب قوم يحسن الظن بهم.."

أما عن تاريخ هذه المدرسـة فقد أنشأها "رجل إسرائـيلي غيور على أمته. فلما نجح مشروعه كانت الجمـعية الصهيونية قد أخذت بناصر اليـهود وفـرضت عليه أن جعل هذه المدرسة تحت رعايتـها لتـساعـدها بالمال عند الحاجـة فأجـابها.." وسـيتـحدث أيضـا عن

مـدرسة أخـرى شبيـهة كـان يجري الأعـداد لهـا في يافا بأمـوال الصـهيونيـة وستكون تحـت رعاية ألمانيـا، هذا فضـلاً عن الجامـعة العبـرية في القدس والتي كان قـد أعلن عن تأسيسـها سنة ١٩١٣ وسوف يكون كل شيء فيـها باللغة العبـرية وهناك مدارس أخرى "فنية" بالعبرية مثل مدرسة الزراعة في يافا وغيرها من المدارس.

ويقدم زيدان هنا مـلاحظتين الأولى تتعلق باللغة العـبرية " .. بعد أن أوشكت تعـد من اللغات الميتة أحـياها أصحابهـا وجعلوها أقـرب إلى الحيـاة العلمـية من اللغـة العربـية ! إذ ليس في العـالم العربي اليوم مدرسة كلية عـالية تعلم العلوم والفنون باللغة العربية فقـط، إلا الجامـعة المصـرية وهي لا تزال في أول نشاطهـا. وهناك كليات في بيروت ولبنان تعلـم أكثر علومها بالعربية فقط لكنها أقل درجة من هذه الكلية.." الثانية ترتبط بالأولى مباشرة وهي أن "كلية تل أبيب مثال لحـياة الأمة اليهودية ونهضـتها العلمية والاجتـماعية بإحيـاء اللغة التي كان يتكلمـها آباء التوراة في إبان مـجدها . وهو درس فـوجّه إليـه أنظار طلاب الإصلاح من العـرب وغيـرهم. إن الأمة لا تحـيا إلا بحيـاة لغتها ولا تحـيا اللغة إلا بكثـرة ما فيـها من المؤلفات العلمية الراقيـة. وأكبر الوسائل المؤدية إلى ذلك أن تكون هي لغة التعليم في المدارس الكبرى.

ومازلنا بحاجة إلى أن نستـمع تلك الملاحظة مجدداً، فإن كان الأجداد لم يـعملوا بهـا ولـم يتوقفـوا عندها جيـداً في سنة ١٩١٤ فلعلّنا نعيها ونستوعبها جيداً اليوم..!!

ويرصد زيدان وجود عملية تهويد كاملة لمدن فلسطين" .. رأينا في يافا أكثر مدائن فلسطين صبغة يهودية ظاهرة في أسواقها ومنازلها فتجد أسماء الصناعات أو المتاجر على الحوانيت أو المنازل في اللغة العبرانية فضلاً عن العربية والأفرنجية. وهم يسمون غرف الفنادق بأسماء آبائهم الأولين أو مدنهم القديمة فبدلا من الاكتفاء بالنمرة للغرفة يسمونها بنيامين مثلاً أو يعقوب أو أريحة أو نحو ذلك."

لم يكن اليهود يتصرفون كجالية أو أقلية أو جماعة ضغط، هم يتصرفون باعتبارهم في وطن ودولة مستقلة أو تسعى للتكون وللاستقلال، ويلاحظ زيدان ما يسميه "حكومة يهودية ضمن حكومة عثمانية" كانت فلسطين تتبع السيادة العثمانية، لكن اليهود هناك أهملوا مظاهر الحكومة القائمة وشرعوا هم في إنشاء حكومتهم، يخبرنا الصحفيّ والباحث الفطن والمدقق أنهم ".. لا يخالطوا أحداً ولا يبايعون أو يستخدمون في حاجاتهم غير أبناء جلدتهم. وفي بعض مستعمراتهم بريد خاص بهم له طوابع خيرية تنفق أثمانها في سبيل البر" ومن طرقهم الاقتصادية في الإحسان أن الجمعيات الخيرية لها أوراق تباع عدة منها بأصغر قطعة من قطع النقود المعروفة. فمن أراد الإحسان الاقتصادي ابتاع مقداراً من هذه الأوراق ومزقها من أجل الفقراء وهي مقبولة عندهم كالنقود.."

وحتى أبرز مظاهر سيادة الدولة وهو القضاء والتقاضي فإنهم

لم يتعاملوا مع المحاكم والقضاء الموجود في فلسطين كان لهم قضاؤهم الخاص" إنهم مستقلون به عن سائر الأهلية فاليهودي إذا اختلف مع يهودي آخر تقاضياً إلى الكاهن أو الشيخ وهو ينظر في خصومتهم ويقضي لصاحب الحق . ولا يقتصر ذلك على الأحوال الشخصية كما يتبادر إلى الذهن فإنهم يتقاضون إلى الكاهن في كل مسألة تحتاج إلى مقاضاة حتى المسائل المالية.

فإذا كان لأحدهم على آخر دين ماطله في دفعه اشتكاه إلى الكاهن فيسمع الشكوى والدفاع ويحكم لصاحب الحق ويأمر المحكوم عليه بالدفع.. وماذا يحدث إذا لم يلتزم المحكوم عليه بالحكم؟

لم يكن لديهم قوة تنفيذية تجبره على الالتزام ولكن كان لديهم عقاب أقسى ".. يقاصونه قصاصاً هو أشد وطأة عليه من السجن نفسه، أنهم يقاطعونه، وذلك أن الكاهن يعلن الحكم في معبدهم ويقول أنه حكم على فلان الفلاني ولم يرضخ له ويوصي بمقاطعته فيصبح كالأجرب بين الأصحاء ليس من يخاطبه أو يبايعه أو يعامله.."

وخلاصة رحلة جورجي زيدان أن ".. تغلب اليهود في فلسطين ظاهر ظهوراً واضحاً فهم أصحاب الثروة ولهم أخصب المغارس وأنظف الشوارع وأفخم المنازل. والوطنيون يرون ذلك ويشتكون والحكومة لا تحرك ساكناً لاشتغالها بنفسها أو بحروبها عن النظر في هذه الشؤن.."

ومعنى ما يرصده لنا زيدان أن الصهاينة في فلسطين لم يكونوا يعملون تحت الأرض، كان كل شئ معلنا وواضحا، فضلا عن أنه مرئى للجميع، لم تكن المدارس ونظامهم التعليمي سريا، ولا كانت مزارعهم ومستعمراتهم سرية، كما أن منشآتهم كانت مفتوحة للزائر، حتى أن صحفيا مثل زيدان لم يجد أي صعوبة في زيارة هذه المواقع وتصوير كل شيء عنها وحولها لا بقلمه، وحينما أراد أن يلتقي بعدد من المسئولين في تلك المواقع لم يمانعوا ولا تعللوا بأي شئ، بل التقوه واستمعوا إلي كل تساؤلاته واستفساراته وأجابوا عنها وسمعوا منه، باختصار لم يخفوا شيئا عنه.

وحينما كتب كل هذا بأوضح الكلمات، في مجلة ثقافية مهمة (الهلال) وهو محررها - رئيس التحرير- وكاتب بارز وباحث معروف جيدا في مصر وخارجها، لكن لم يهتم أحد ويتوقف أمام تلك الحقائق الصادمة. ولو كانت هناك دولة تعي دورها جيدا وتقوم بواجبها، ليس فقط تجاه مواطنيها، بل على الأقل تجاه سلطتها التي تنتهك في فلسطين ودورها الذي يلغي وجوده، لكان ممكنا أن تتخذ موقف وتقوم بفعل ما، لكن الدولة كانت قد ماتت وتعفنت ولم يكن قد بقى سوى أن يتم تحرير شهادة وفاة لها.

والحقيقة أن زيدان لم يكن يتوقع ولا يعول كثيراً على الحكومة القائمة، كانت حكومة الدولة العثمانية وولاتها هم

القائمون في فلسطين.. يقول "على أنها لو وجهت التفاتها إلى هذا الأمر لم يسهل عليها تبديله أو ملاقاته، لأن اليهود يبتاعون الأرضين بطرق قانونية شرعية لا جناح عليهم فيها حسب الظاهر. والحكومة في هذه الأيام لا تستطيع مصادرتهم أو منعهم من استثمار الأرض بأموالهم وعرق جبينهم. نعم إن المرابين من اليهود يغتنمون ضعف الفلاح المدين لهم ويقبضون عقاره إذا قصر عن الدفع. وهكذا يفعل سائر المرابين بمصر وغيرها من اليهود وغيرهم.

إذاً هل معنى هذا أن يستسلم الجميع ويسلموا بأن فلسطين ستذهب لليهود؟ لا يرى زيدان ذلك فهو يقدر ويعترف بحق العقلاء في أن يشتكوا مما يجري وأن يحاولوا التخلص من تلك المشكلة لكن التعامل لا يكون بمجرد الشكوى ويقترح الحل التالي ".. النسج على منوالي أولئك المستعمرين من حيث تعمير الأرض بالطرق العلمية وإنقاذ الفلاح من المرابي بالطرق المعقولة إما بإنشاء النقابات الزراعية أو نحو ذلك". وكغيره من الاقتراحات الأخرى التي قدمها كتاب آخرون لم يجد اقتراح زيدان أي إهتمام ولا فكر أحد في أن يأخذ به، وإن كان هو قد رأى أن الدولة لديها إمكانية أن تأخذ به، وإن لم يعول على ذلك كثير، ولو أرادت الحكومة النظر في هذا الأمر لكانت أقدر من سواها على ملاقاته. ولكنها مشغولة مضطربة، وأغنياء الوطنيين والطبقة الراقية منهم أكثرهم منصرفون إلى المسائل السياسية والتنازع على الوظائف أو النيابات

أو المطالبة بالإصلاح. ولو صرفوا ذكاءهم وهمتهم إلى الوجهة الاقتصادية بملافاة صيرورة بلادهم ملكاً لسواهم لكان ذلك أقرب إلى الوطنية وأدنى إلى الاستقلال الحقيقي.."

وهنا يبرز سؤال المستقبل، مستقبل فلسطين على ضوء اللوحة التي رسمها زيدان ورآها، لقد كان أشبه بزرقاء اليمامة فقد قال إن مستقبل فلسطين لليهود وتفصيل ذلك على النحو التالي ".. ما لا شك فيه من مستقبل تلك البلاد أن الحال إذا ظل على ذلك واليهود عاملون على ابتياع الأرضين واستعمارها وأهلها غافلون أو متجاهلون وحكومتها ساكتة أو مشغولة، فلا يمضي زمن طويل حتى تصير كلها لليهود. ولا عبرة في من يتولى شؤونها السياسية ولا فرق أن تكون يومئذ في سلطة العثمانيين أو العرب أو الفرنساويين أو الإنكليز. فإن العبرة في من يملك الأرض ويستولى على غلتها وليس صاحب السيادة السياسية إلا وسيلة لحفظ الأمن وتأييد الملك لصاحبه. سواء كان مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً". ومضت صيحة جورجي زيدان ، رغم أنه قالها مبكراً، قبل قيام الحرب العالمية الأولى وقبل صدور وعد بلفور، وظل المسئولون منهم الغافل ومنهم المتجاهل، وظلت الحكومة مشغولة حينا ومتغاضية حيناً ومتواطئة حيناً، والأهالي المساكين ظلوا يشكون، وهم علي ثقة أن هناك دولة تحمي البلاد وتصون الأرض، لكن الدولة كانت تصارع الموت، وكانت النتيجة أن ضاعت فلسطين. كان اليهود ينظمون أنفسهم ويتقدمون يوماً ما بعد يوم ..

مؤسسات اقتـصادية، تملك الأراضي، ثم القوة العسكرية ولم يكن بعد ذلك سوى إعلان الدولة العبرية..!!

الفصل

الخامس

5

شبلي شميل:

الصهاينة مدرسة لنا

يضع كثير من الدارسين شبلي شميل علي رأس التيار العلمي و المادي في الفكر العربي المعاصر، ويمتد ذلك التيار، وفقا لهذا الفهم، ليشمل بعد شميل إسماعيل مظهر وسلامه موسى وغيرهما، ويعد د. مراد وهبة حاليا أبرز دعاة ذلك التيار، وهناك أنصار ومعجبون إلي اليوم بالتفكير العلمي ، وله أيضا خصوم،ومعظمهم من التيار السلفي وبعضهم من القوميين إذ يرون أن شميل من رواد " الغزو الفكري الذي تتعرض له الأمة وأنه من العلمانيين أو الملحدين الذين يحاربون ثوابت الأمة ومقدساتها .

ولد شبلي شميل في كفر شيما " بلبنان ،وقت أن كانت جزءاً من سوريا الكبرى، وكان ذلك عام ١٨٥٣ ودرس في الكلية الأمريكية ببيروت وفي العام ١٨٧١ أنهي دراسة الطب بها ، فسافر إلي أوروبا لمواصلة الدرس والتعليم في مجال الطب، وهناك

كانت نـظرية داروين هي الحدث الأبرز وتشـغل الجميـع ،كان هو من الذين درسـوها وأعـجـبـوا بها ، وفـي ١٨٧٥ جاء إلي مـصـر واستقر بها، وقيل أنه التقي السـيد جمال الدين الأفغاني وكان ممن تحلقـوا حوله فـترة وجـوده بمصر وبدأ شـميل يكتب في الصـحف والمجلات المصرية،كان واضحـا تأثره الشديد بالفلسفة المادية وأخذ يعرب وينقل إلي قـرائه نظرية داروين وما يدور حولهـا من شروح وآراء.. هكذا قـدم في جزأيـن "فلسفـة النشـوء والارتقاء" وكـان مـؤيدا لهـذه الفلسـفـة يدافع عنهـا بحـمـاس ويسـوق الأدلة علي صحـتها، وكان يكتب المقـالات والدراسات في القضايا والشـئون العامة، شأن كـتّاب ومثقفي ذلك الزمان، وقام بـجمع مقالاته تلك في مجلدين بعنوان"مجموعه الدكتور شيلي شميل ".

وحين احتـدم النقاش حـول الصهـيونيـة وإسرائيل والهـجرة

اليـهودية إلي فلسطين، تدخل هو في الـنقاش، وكمـا قدم للـقراء جـديداً و غريبـاً عليـهم، تمثل في أراء داروين، نراه أيضـا في هذه القضية يكون رأسا لتيار خاص ويقدم رأيا جديد وغريبا أيضا،علي الساحة فــي ذلك الوقت.

ويبـدو أنـه إقـامـتـه في أوروبـا، أتاحت له أن يتـابع المـشكلة اليهودية وما يتعرض له اليهود هناك، وتابع جيدا قضية (دريفوس) التي أثيرت في فـرنسا،كان دريفـوس يهوديا مجندا واتهم بالخـيانة وحكم عليـه بالإعـدام، وبعـد ذلك تبين أنه ظلم وكـان بريئـاوثار الرأيُ العام في فرنسـا وفي أوروبا كلها حول قضيـة دريفوس وما جري فيها،وفي جريدة" البصيـر" ينشر شميل مقالا ' بعنوان "لطمة علي خد الـعالم[1] "ولم تفـارقه روحـه العلمـية في المقـال وتجنب الاندفـــاع السـريع وراء الأهـواء والآراء، السـائدة، آثـر أن يناقش القضـية بهـدوء "لا ندري هل جار القـضاة في حكمـهم أم عدلوا والذي ندريه أن الـناس كـثـيـرا مـــا يرون بعين أهوائـهم لا بعين عقولهم ..قضاة كانوا أم حكاما أم من عامه الشعب "يتوقف شميل عند قـول فريق من الناس في فـرنسا أن الحكم وإن لم يكـن عادلا فهـو حكم سـياسي. أي أنه ليس الحكم العـادل بقدر مـا هو حكم راعي فيه القضاة المنفعة العـامة. ويرصد حاله من القلق، في فرنسا

(١) نشر هذا المقال في سنـة ١٨٩٩ وحمعه شميـل في الجزء الثاني من مجمـوعته ، التي أصـدرتهـا مطبـعـة المعـارف بالفـجالة – دار المـعارف فـيـمـا بعـد – سنة ١٩٠٨ – صفحة١٤٣ .

وفي أوربا كلهـا ، وقد تكون قضـية دريفـوس هي السبب المبـاشر لهذا القلق، لكن بقيه الأسباب أعمق من القضية ذاتها، إنها تتصل بالنظم السيـاسية والاجـتماعيـة في أوروبا، ويري أن فرنسا تحـتاج ثورة جـديدة علي غرار ثـورتها ضـد لويس السـادس عشـر، ثورة تنتقل منها لتعم أوروبا كلها .

أيا كـان الأمر، نحن بإزاء كـاتب ومفـكر عربي ألم بالمسـالة اليهودية ومـا يعانون في أوربا وما يقومـون به هناك، والجدل الدائر حول هذه المسالة .

ويمكن أن نضيف إلي أنـه يبن أعمال شـبلي شميل كـتاب لم يحقق رواجا وأهمله من كتبوا عن شميل وهو "سوريا ومستقبلها" وهذا يعني أن اهتماماته العلمية والطبية وهجرته إلى أوربا فترة، لم تمنعـه عن متابعـة الشأن العـام في وطنه، وأن يدلي فيـه برأيه، وفي تلك الفترة كان الحديث ينتشـر عن انفصال أو استقلال بيروت عن سوريا الكبـرى، بعد أن كانت جزءاً منهـا، لقد ولد في لبنان وقت أن كانت جـزءاً من سوريا، ثم جـاء ليعيش في مـصر، وهو مـتابع ذكي ودءوب لما يجري حـوله، لذا يصبح عادياً أن يهـتم بما يجرى على أرض فلسطين وحولهـا.. ربما غير العـادي أو الغريب هو ألا يهتم ، لكن الذي حدث أن المـتابعين والنقاد حصروا شـبلي شميل في أنه الذي قـدم نظرية داروين إلى القراء والبـاحثين الـعرب وتم تجاهل ونسيان بقية ما كتبه وما قام به!

وفي مقالاته سوف نلحظ أمرين آخرين، الأول: أنه كتب أكثر من مرة عن الاشتراكية والاشتراكيين، يقدمها للقاريء ويدافع عنها، وهو يعد الاشتراكية ضرورة اجتماعية وإنسانية لابد أن تتحقق يوماً ، ومن شدة حماسه للاشتراكية طالبه أحد الكتاب - متهكماً - أن يؤسس حزباً اشتراكياً مصرياً، ويعرف الاشتراكية بأنها الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة بقدر الاشتراك في ذلك العمل، ويربط الاشتراكية بالعمران البشري، الذي يستفيض في الحديث عنه والتنظير له.

الثاني: أنه كان دائم الهجوم على رجال الدين جميعاً، ويرى أن الأديان كلها، خاصة المسيحية والإسلام يدعوان إلى أرفع القيم والمثل العليا، لكن رجال الدين أساءوا كثيراً إلى تلك القيم وحوّوها إلى صالحهم الخاص، وكثير من الحروب التي قامت في التاريخ كان يقف وراءها رجال الدين وكانت لحسابهم وأهوائهم.

بهذه الخلفية من الأفكار والمواقف والخبرات، لم يكن ممكناً أن يتجاهل شبلي شميل القضية الصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين، خاصة وأن القضية كانت تزداد حدة وسخونة عاماً بعد عام، بل يوماً بعد يوم، في المنطقة وفي أوروبا، وكان هو وثيق الصلة بأوروبا، دائم الإطلاع على ما يدور في صحفها وما يتناوله كتابها، وهكذا نراه في عام ١٩١٤ يدخل بقلمه في تلك القضية، كان في سنوات عمره الأخيرة - توفى أول يناير ١٩١٧- وفي ذروة تألقه العلمي والفكري، وهكذا كتب في (المقطم) مقالاً -

عدد أول مايو ١٩١٤- نشر على الصفحة الأولى بعنوان (عمّروا أو استعمروا فالأرض ميراث المجتهدين).

المقال شأن مقالاته وكتاباته الأخرى يتسم بالتركيز الشديد.. وضوح الفكرة وبساطة الكلمات قياساً على كتاب وكتابات تلك السنوات، لن تجد ترهلاً في المقال أو استطرادات تخرج عن السياق، ويعلن شميل أنه كتب ذلك المقال بمناسبة (الضجة الهائلة القائمة اليوم حول الصهيونية والصهيونيين واستعمارهم أراضي فلسطين).

كانت الضجة هائلة - بالفعل - في فلسطين، بين أهلها وسكانها، الذين يرون ازدياد معدلات الهجرة اليهودية إلى بلادهم، ولنتذكر أنه في تلك الفترة كانت مشكلة اليهود تتفاقم في شرق أوربا، وكانوا يخرجون في هجرات جماعية، وبينهم من كان يذهب إلى الولايات المتحدة وبلدان أوربا وبعضهم توجه إلي مصر وأعداد كبيرة منهم تم توجيهها إلى فلسطين، وكانت المستعمرات الصهيونية في فلسطين تتسع ويزداد عددها أيضاً - ولم يكن ينقص المهاجرين الأموال ولا الآلات الحديثة للزراعة، بينما الفلاحون الفلسطينيون فقراء مفروض عليهم التسلط والاستبداد العثماني، والولاة لا يعنيهم شيئاً ، سوى ما يصل خزائنهم من الأموال والبقاء في مقاعدهم، شعر الفلسطينيون بالقلق وراحوا يشكون إلى كل من يمكنهم الشكوى إليه.

وكانت الضجة قائمة أيضاً في الصحافة المصرية، من مختلف الاتجاهات والتيارات، وتناول عدد كبير من الصحف هذه القضية، تناولها مراسلوها في فلسطين، فضلاً عن الكتاب والمفكرين، حتى أن "المقطم" وهي الصحيفة الأقرب إلى الاحتلال البريطاني في مصر تضع مقال شبلي شميل عن تلك القضية في صفحتها الأولى.

في أوربا كانت القضية مشتعلة أكثر، كان اليهود يواجهون مشكلات في أوربا الشرقية، وكانت أفكار النازية في طريقها للصعود، وكان أثرياء اليهود في أوربا يبذلون الجهد لحل هذه المشكلات، بدعم الهجرة إلى فلسطين، مالياً وسياسياً، وبمحاولة التأثير في صنع القرار السياسي بأوربا، وكانت الحركة الصهيونية قد أنهت ترددها وحسمت أمرها في أن تكون فلسطين هي "وطن" اليهود وليست مجرد ملجأ، اللاجيء لابد وأن يغادر الملجأ يوماً ويبحث له عن وطن، لكن الوطن لا يغادره صاحبه نهائياً ، وأحاطت الصهيونية ذلك الوطن الجديد بأساطير وأفكار دينية مثل أن فلسطين هي أرض الميعاد، وأنها مقر الهيكل القديم وقد زاد ذلك من حماس الصهيونية والصهاينة لتحقيق مشروعهم، خاصة وأن الحرب العالمية كانت على الأبواب، ومن جانبهم ازداد شعور الفلسطينيين بالقلق من الصهيونية، وانتقل القلق إلى عدد من الكتاب العرب، وازداد ضغط قادة اليهود على السياسيين في أوربا، وتحديداً بريطانيا، وسوف تؤدي ضغوطهم بعد ثلاث

سنوات إلي استصدار تعهد أو وعد من وزير خارجية بريطانيا لورد بلفور، والذي عرف بوعد بلفور.

وسوف نكتشف من المقال أن تسميل يستعمل كلمة ضجة بالمعنى السلبي، أي أننا بإزاء ضجيج يعبر عن أزمة مفتعلة أو أزمة غير حقيقية، ولذا نراه يحاول الوصول إلى جذر هذه الضجة وأصلها بأنه يضع قاعدة ذهبية ومبدأ يفهم من خلاله تلك الأزمة، فهو يرى أن "جميع الشرائع" تقرر أن "الإنسان وجد على الأرض لتعميرها لا لتخريبها" ويضيف "الأرض تجازي العامل النشيط إذ تقيمه فيها على الرحب والسعة وتعاقب الخامل فتحرمه حتى موارد حياته البهيمية، وهي قاعدة مطلقة تتجاوز حدود المكان والزمان الجغرافيا والتاريخ، وهي موضع إقرار واتفاق "جميع الشرائع"، أي أنها لا ترتبط بوطن معين ولا حقبة تاريخية محدودة ولا هي قاصرة على شريعة أو دين دون الآخر، ولا ثقافة دون ثقافة، فالمعيار الأوحد هو تعمير الأرض والعمل والنشاط بغض النظر عن أي معيار آخر.

ويكمل قاعدته السابقة بمقولة أن "حماية الضعيف المطلوبة من الشرائع لا تجيز لها أن تسمح لهذا الضعيف بالإفساد فيها ولو أجازت له نظرياً ما استطاعت ذلك عملياً، إلا إذا درَّعته بقوة تضاهي القوة التي يخشى عليه منها".

هذا كله تمهيد جيد وكلام طيب ، حول ضرورة تعمير الأرض

وعدم تخريبها أو الإفساد فيها، كي يصل إلى النتيجة التي يؤمن بها سلفاً وسبق له أن قدمها من قبل، والنتيجة لا تبتعد عن نظرية داروين كثيراً ، إنه يريد أن ينقل قواعد وآليات تلك النظرية من الطبيعة إلى المجتمع، تقوم النظرية على التنازع والصراع بين الأحياء والكائنات وفي النهاية البقاء للأصلح والأقوى والغناء للضعيف والكسول غير المنتج وغير المعمر، يريد شميل أن يقول للجميع أن حق الإنسان في الأرض، أي إنسان وأي بقعة، حق عام مشترك، يؤيده العمل ويحفظه العمران ولا تدفعه النصوص النظرية وإلا لبقيت الأرض من أول الخليفة حتى اليوم حقاً خاصاً ، غير مشاع، يستأثر بها قوم ولا يخلفهم فيها سواهم على مدى القرون، والقاعدة التي اجتهد شميل كي يرسيها ويقنع القاريء بها تهدر معنى الوطن والوطنية، فليس فيها مكان لارتباط إنسان بأرض معينة أو مكان معين، حتى لو عاش في هذا المكان وسبقه إل الآباء والأجداد، كل هذا ليس مبررا ولا كافيا، المبرر لديه هو أن يعمل الإنسان ويعمر الأرض، وساعتها تكون له وتصبح ملكه، بغض النظر عن أي شيء آخر، ولم يناقش الكثير من التفضيلات، ماذا لو كانت تلك الأرض مملوكة لآخرين، حتى لو رأينا أنهم لم يعمّروها، هل يبرر ذلك أن يأتي آخرون ويقومون بالاستيلاء عليها ونزعها منهم بدعوى أنهم سوف يقومون بالإعمار قيمة "الوطن" لا وجود لديها ولا أشرف مقالات شميل تلك .. لقد وضع قاعدة مجردة من اعتبارات وفصيلات كثيرة، ولو تم إعمالها لعمّت الحروب الدنيا كلها.

وهنا سوف نلاحظ أن شبلي شميل أطال في التقديم والتمهيد للدخول في الموضوع الذي يبتغيه، ويبدو أن ذلك كان مهماً لديه، خاصة أنه يحمل فكرة مغايرة وموقفاً مخالفاً كثيراً لمواقف زملائه من الكتاب الذين تناولوا هذه القضية، سواء وقت أن كتب أو قبل ذلك، تحديداً منذ أثير الموضوع على صفحات الصحف، ونشعر هنا أن خطابه موجه لزملائه قبل أن يكون موجهاً لعموم القراء والمنشغلين بالمسألة، فضلاً عن المجتمع كله.. يقول شميل في مقاله: حجتنا على الصهيونية اليوم أنهم دخلاء يعتدون علينا ويسلبوننا أرضنا، هي ملكنا وقد سفكنا دماء زكية لأجلها.

وهذا المنطق والمنهج في تناول القضية لا يقنع شميل ولا يرضيه، إنه يسخر من تلك الحجة ويهزأ بها، يراها حجة واهية " كبكاء الأطفال، وسر ضعفها أنها يمكن أن تكون ضدنا وعلينا وأن تصبح في يد الخصوم، كما هي في يدنا نحن الآن ذلك أنه يمكن للصهاينة أن يتعاملوا هم بنفس المنطق والحجة ضدنا، فلو امتد الخط على استقامته، أي الحجة التاريخية لأمكن لهم أن يواجهونا بها، وتصبح الأرض ملكاً لهم هم ، فالتاريخ لهم كما هو لنا يقول شميل: لو جاز لنا مثل هذا الاحتجاج لجاز لهم أن يواجهونا بمثل حجتنا ويقولون إن الأرض أرض آبائهم وقد سلبت منا بالسيف ونحن نستردها اليوم.

والواقع أن هذه الحجة قالها الصهاينة بالفعل، وكتبوها كثيرا

قبل أن يشير إليها شميل وربما كانت السبب الحاسم في اختيارهم فلسطين تحديداً لتكون موطناً لهم، فهي لديهم أرض الميعاد وعدهم بها الرب، باعتبارهم شعبه المختار وهي التي شهدت مملكتهم الأولى، ومن بين حجج واعتراضات كثيرة أبداها الكتاب العرب على المشروع الصهيوني اختار شميل الحجة التي يمكن الاعتراض عليها وقلبها لصالح الصهيونية، رغم ما ينطوي عليه ذلك من مغالطات تاريخية وتجاهل لأوضاع كثيرة، فالعرب لم ينتزعوا فلسطين من اليهود ولم يطردوهم منها، فضلاً عن ذلك فهناك تجاهل لأمور عديدة، تتعلق بعرب فلسطين وحقوقهم في بلدهم ووطنهم، وقد تكون الهجرة الفردية لبلد ما مقبولة، لكن الهجرة الجماعية على النحو الذي جرى في فلسطين أمر مقلق ومثير للريبة، خاصة إذا جاءت تلك الهجرة وفقاً لأيديولوجية وهدف سياسي لدى المهاجرين، وقد أعلنوه فعليا بكثير من الوسائل، هدف يجعلهم ضد كافة الأوضاع والقوانين في المجتمع الذي هاجروا إليه وبالتأكيد كان شميل يعرفه، لكنه آثر أن يتجاهل ذلك كله، وتجاهل العنصر الديني الذي يقف خلف هؤلاء المهاجرين، فهم جميعاً من اليهود ولديهم نصوص دينية تحركهم إلى جوار الأهداف السياسية والقومية.

وفي العقود الأخيرة جرت هجرات بأعداد كبيرة من الرب والمسلمين إلي عدد من بلاد أوروبا خاصة فرنسا، وكذلك الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هناك حرص من كل دولة على

أن يلتزم المهاجرون بقواعد وقوانين المجتمعات التي هاجروا إليها - في فرنسا - مثلا تم منع غطاء الرأس أو ارتداء أي رمز ديني للفتيات داخل المدارس الرسمية، وحين احتجت الجاليات المسلمة، كان الرد أن دستور الدولة الفرنسية يقر العلمانية ولابد من الحفاظ على ذلك الطابع والتمسك به، وحين احتج عدد من علماء المسلمين في مصر وغيرها، كان احتجاجهم قائما على أن العلمانية لا تجيز التدخل في اعتقاد الآخر أي أن المعترضون لم ينكروا أو يرفضوا المبدأ الأساسي في فرنسا وفي النهاية ألزم المهاجرون بما قررته الدولة الفرنسية، وفي الولايات المتحدة هناك إجراءات أشد، لكن الذين هاجروا إلي فلسطين انطلقوا على ما هو أهم، وأعملوا أفكارهم واعتقاداتهم الخاصة، دون مراعاة القواعد أو ثقافة وقوانين المجتمع الذي هاجروا إليه، ولم تكن هناك دولة تذكرهم بذلك وتلزمهم به، ولا كانت هناك سلطة تراقب تنفيذ القوانين والنظام العام .

كان شبلي شميل شديد الإعجاب بالصهاينة، ولم يداري ذلك الإعجاب، بل عبر عنه صراحة "إنهم يستردون الأرض بغير القتال والدماء والنزاع العسكري" ويتحدث باسمهم أو ما يتصور أنهم يقولونه "بغير السيف نستردها، بأعمال تبتهج لها الأرض نفسها وتحمدنا عليها الأجيال قاطبة فتحول أطلالها مدائن وأرضها السبخة حدائق" .

سوف نلاحظ أنه استعمل كلمة (يستردون الأرض) أي أن

الهدف السياسي واضح أو أنها هي أرضهم بالأساس وكانت مسلوبة منهم وهم يستردونها، وإذا كان معجباً بما يقومون به، فإنه يحذر من أن الحال إذا استمر على هذا النحو فسوف"تؤول الأرض كلها إلى الصهيونية" وينبه: "على أنهم هم لا يصرحون بأنهم يريدون أن يقصونا وإن أدى عملهم فينا إلى هذه النتيجة إذا كنا لا نتدرع بقوة تضاهي قوتهم ونكون وإياهم أكفاء رحمة بالأرض".

ربما كان التحذير والتنبيه موجها إلى الدولة العثمانية أو إلى العرب عموماً في فلسطين وفي غيرها، ترى هل رأى شبلي شميل أن الصهاينة يحققون النظرية الدارونية؟ نظرية الصراع والبقاء للأصلح أو الأقوى.. وهم الأقوياء بإعمار الأرض وتحويل السبخ منها إلى حدائق والأطلال إلى مدائن عامرة.. وهم -كما يرى- كرماء ونبلاء يريدون الأعمار فقط ولا يريدون اقصاء العرب عنها، ولكن لو استمر الحال هكذا فسوف يحدث ذلك ولو حدث فالعيب فينا نحن وليس فيهم هم، والذنب ذنبنا وهم أبرياء، وساعتها لن نتمكن من دفعهم ولا أن نغالبهم، فنحن بلا قوة مثلهم، بل لن يكون لنا الحق في الشكوى مجرد الشكوى منهم "بأي حق ندفعهم، بل كيف يجوز لنا أن نشكو منهم ونحن نعلم أن الشكوى وحدها لا تدفعهم عنا ولا تجدينا غير العداءات وتسجيل الخرق علينا أم نقوم عليهم بالقوة الوحشية ونجني على العمران وعلى الأرض جناية أخرى وتكون معهم كما في المثل عاطلين ومعطلين وهل يتيسر ذلك لنا اليوم؟

القضية عنده هي امتلاك القوة، ليس المقصود هنا القوة العسكرية أو ما يسميها "القوة الوحشية" وهو يتخوف من أن يستعمل العرب القوة الوحشية ضد الصهاينة، أو لا يكون أمامهم غير ذلك، فلو حدث ذلك نكون قد أسأنا إلى الأرض وعطلنا العمران، وفضلاً عن ذلك فلن يتيسر لنا ولن يتاح مواجهتهم عسكريا، والواضح أنه يستبعد تماماً أن يقوم الصهاينة على العرب بالقوة الوحشية، والأغلب أنه يتصور أنهم ليسوا بحاجة لذلك، ولن يكونوا ، هم يزّرعون ويعمرون، وبذلك سوف يحصلون على كل ما يريدون، القوة عنده قوة الاقتصاد والإنتاج والتعمير، هؤلاء عنده جاءوا ليقوموا بما كان ينبغي للعرب وللدولة العلية أن تقوم به من فلاحة الأرض وبناء المدن والقرى، ولذا فليس من حق أحد أن يمنعهم أو يتصدى لهم، أما العرب فلم يقوموا بشيء ولا الدولة العلية أدت ما كان ينبغي لها أن تقوم به، ولم يعد لهم سوى الشكوى والشكوى، رغم أن الشكوى لن تدفع الصهاينة عن الأرض ولن توقف ما يقومون به من إعمار، هو يحذر أيضاً من أي محاولة يمكن أن يقوم بها العرب للتصدي لهم أو منعهم، فلن يترتب على ذلك سوى إدانة من يقوم بذلك من العالم كله.

مجدداً سوف نلاحظ اختفاء مفهوم الوطن لديه بالمعنى المعروف، فهو يرى أن الأرض مباحة وحق لمن يزرعها ويعمرها أما من يتركها خربة فليست له ، حتى لو كانت أرض الآباء والأجداد، وعلى هذا فليس متاحاً لعرب فلسطين إلا أن يقوموا بإعمار

الأرض وأن يكفوا عن الشكوى من الصهاينة وما يقومون به وألا يفكروا في عدائهم أو محاولة الهجوم الوحشي عليهم.

ويعلن شعاره الذي يقتنع به "الناموس العمراني العام يقضي بأن الأرض ميراث المجتهدين فعويلنا اليوم لا ينفعنا.."، وهو يذكر العرب بالتاريخ اليهودي، اليهود في القديم، مثل العرب اليوم ارتفع عويلهم وازدادت آلامهم، لكن لم تنفعهم "مراثى أرميا في الماضي، وكذلك العرب اليوم".

وهو يرى أن علاقة العرب بالصهاينة يجب أن تقوم على أسس مختلفة، فلا مكان للشكوى أو للاعتداء وندب الحظ، فإن أردنا التعامل، فلتنافسهم فيما يقومون به وما هم عليه، ولا بديل غير ذلك.

وحيث إنهم تفوقوا علينا فعليا في العمران، فلا ضرر من أن نتعلم منهم ونعدهم أساتذتنا، نعترف ونقر لهم بالفضل وبالأسبقية، ولذا وجب علينا شكرهم "ليس أمامنا حفظاً لكرامتنا إلا أن نناهضهم مناهضة رجال العقل لا رجال الجهل ونتبارى معهم في الأعمال العمرانية ونأخذ عنهم ونحمدهم على أنهم كانوا لنا مدرسة تعلمنا كيف نعمر أرضناً.."

وكان لدى الصهاينة أموالاً طائلة مكنتهم من الإنفاق على استصلاح الأراضي وزراعتها، كان أثرياء يهود أوربا خلفهم بأموالهم وثرواتهم، بينما كان العرب فقراء، أرهقهم الاستبداد

العثماني وكثرة الضرائب ولصوصية الولاة ورجال الدولة، لذا أهملت الأرض وتراجعت الزراعة وقل الإنتاج، ومن هنا فإن المقارنة بين العرب والصهاينة في هذه الحالة ليست عادلة ولا تصح، إنها مقارنة بين المقيد، السجين، المقهور بالتسلط وبالفقر وبين ذلك الذي جاء مسلحاً بأيديولوجية السيطرة على الأرض والمزيد من الأموال، الغريب أن شبل شميلي كان يدرك كل ذلك ويعرفه لكن لم يعره اهتماماً ، فلديه قضية أخرى ".. فإذا شكونا الفقر وشكوانا في محلها فما ذنب الأرض المسكينة حتى نحرمها اجتهاد المجتهدين ونحجب عنها وعن العالم خيراتها؟ أفلسنا نحن الذين أفقرناها وأفقرنا أنفسنا معها؟.."

الأرض هي الأهم لديه، تحديداً عمرانها، ذلك يسبق الفرد ويسبق الشعب أيضاً، من يعمر الأرض هو الذي يستحقها، ويوجه نداء، يمكن أن نعده للعرب أو للصهاينة أو لأي مجموعة بشرية في العالم هو نداء إنساني عام يلخص موقفه "فاستعمروا الأرض أيها الناس وعمروها، وللأرض الباقية خير من الإنسان الزائل، فعلى صلاحها يتوقف صلاح الأجيال في الحال والاستقبال".

وإذا كان شميل اقتنع بنظرية البقاء للأصلح والزوال والفناء للضعيف والخامل على مستوى تطور الكائنات الحية، فإنه يقدم نظرية تقترب منها في الاجتماع وفي السياسة وهي أن البقاء للأقوى، لمن يعمر الأرض والزوال للفقير الذي لا يستصلح ولا

يعمر . ومرة ثالثة لا مكان في مثل هذه النظرية لمفاهيم مثل الوطن والقومية والأمة!!

لم يكن حظ آراء شميل وأفكاره في المسألة الصهيونية، أفضل من خط أفكاره السابقة في النظرية الداروينية ، سواء في استقبال الجمهور العام لها أو الكتاب والمثقفين، فما أن نشر "المقطم" المقال حتى بدأت الردود عليه ومحاولة تفنيد تلك الآراء ومهاجمته، وازداد الانتقاد واشتد الهجوم في عدد من الصحف، ولم يتوقف الهجوم، بل تواصلت الحملة عليه وحاول هو تجاهل الأمر، لكن عند لحظة معينة لم يتمكن من الصمت، وتلك اللحظة تمثلت في مقال نشر بالأهرام، كتبه أحد أصدقاء شميل نفسه وهو إبراهيم النجار، أحد كتاب الأهرام، ولم يذكر النجار اسم صديقه نهائياً، فقط تحدث عمن أسماهم الكتاب غير الإسرائيليين الذين يدافعون عن الصهيونية ويتبنون أفكارها، ولم يكن الأمر بحاجة إلي ذكاء كبير كي يفهم شميل أنه هو المقصود بتلك الإشارة.

ولعل ما دفع شميل إلى الرد أن صديقه النجار لم يتوقف عند انتقاد الآراء التي عبر عنها شميل ولكنه اتهم الكتاب الذين يدافعون عن الصهيونية بأنهم يفعلون ذلك لمنفعة "يحاولون أن تتناسب قيمتها المادية مع الشدة التي يستعملونها في مناقشة مناظرتهم" ، وهكذا وجد شميل نفسه بإزاء اتهام يسمى في أيامنا هذه "التربح" من وراء المواقف الفكرية والكتابة، موقف فكري وسياسي مدفوع الثمن، وجاء الاتهام من كاتب بارز.

ولعل هذا ما دفع شميل أن يقوم بالرد على صفحات الأهرام وليس "المقطم" كما نشر المقال الأول، الذي أثار تلك الضجة.

في عدد ١٣ يونية ١٩١٤ وبعد قرابة شهر ونصف من المقال الأول نشر الأهرام المقال الثاني أو الرد "لو لم أنشر منذ مدة كلمة في هذا الموضوع لما عدت إليه اليوم ولم أنشرها إلا بعد التردد الطويل لعلمي بما يترتب على المسائل الخاصة من المظان ولا سيما في هذه الأيام التي عاش فيها الكتاب واستطالت قصباتهم.. ويبدوا أنه صدم من هجوم زملائه الكتاب عليه" ما ظننت أنني أكون موضع التعريض والغمز ورميي من وراء الستار بكل ما يشين، والإنكار على كل حسنة كان المشنعون على اليوم، كما يقولون، يرونها في من قبل .." ولكنه يسخر من ذلك الهجوم ومن أصحابه، سخرية مريرة "كأنهم أدركوا في الحال أن يرجى الشاهق مبنى من الورق، كما يقول الأفرنج، فهدموه. وأن صنمي الهائل مصنوع من الخزف فحطموه وظنوا لذلك أنهم كسروا قلمي الحديدي ولطخوني بعار، هم منه أنقى من البللور. ."

لم يكن الهجوم عليه قاصرا علي الصحف وكتاب المقالات بل وصلته رسائل من القراء احتجاجاً وهجوماً "كتب إلى جبانٍ بلسان جبناء كتاباً غفلا من كل توقيع، جاد على فيه بكل تشنيع، إن صح بي فهو من خصوصياتي ولا يهم الجمهور وما ادعيت لنفسي عصمة الآلهة عن الخطأ ولا عفة القوم الورعة.."، لكنه

يتوقف عند انتـقاد صديقـه إبراهيم النجار والاتهـام له بالتربح من مـديح الصهـاينة، ويعاتب صـديقـه ولا يتصـور أنه يقصـد المعنى المبـاشر لاتهامـه "لكنه كـصحافـي خبيـر لا يجوز له أن يجـهل أن التعـريض العام المبهم شـر من الاتهام الصريح في مـقامات كثـيرة والاعتذار لا يخفف شيئاً من عدم الحـيطة فيه وفي العموم يستخف بذلك الاتهام، وعدم إمكـان حدوثه، لسبب يتعلق بالصـهاينة، فهم ليسوا بحاجة لشراء أحـد من الكتاب المناصرين أو المرافقين، فضلا عن أنه لا يعـد نفـسه مـدافـعا عـنهم أو مسـاندا لهم، وأكـد ذلك بكلمات واضحة ومباشرة".

أود أن يكون الإسـرائيليون أعـقل جداً من أن يشـتروا نصـرة نظيري من الناصرين وما نصرتُهم، بل نصرتُ حق الأرض نفسها، أو يشتروا سكوت سـواي من الطاعنين، وهو إذا مات منهم طاعن قام طاعن، مـا دام عملهم حقـاً مشروعـاً ومنفعتـه للأرض ثابتة لا ينكرها حتى خصومهم أنفسهم".

ولعل عباراته الأخيرة أشد ما كـتب تمجيداً للصهاينة، فعملهم وما يقومون به على أرض فلسطين حق مـشروع، وعملهم إيجابي ونفـعه واضح، لا يمـكن حتى لخصـومهم أن يشكـكوا فيـه، وهم لذلك ليسوا بحـاجة لشراء المادحين والمناصرين، ولا يتـخوفون من الناقدين أو من يسميهم الطاعنين، صورة تكاد أن تكون مثالية حتى لا نقول ملائكية، نحن بإزاء كـاتب يحلق في سماء الأفكار والمثل

المجردة ويتجاهل الوقائع ويتناسى جوانب كثيرة للمشكلة أو أنه بريئ وربما ساذج إلى أقصى حد، ويبدو أنه كان متيقناً أن الرأي العام الذي يتابع لن يحتمل ذلك الإطراء والتناء على الصهاينة، ولذا راح يخفف من وقع أفكاره وعباراته السابقة في تمجيد الصهاينة، وقدم بعض الاستدراك "هذا لا يستفاد منه إذا كانوا على حق في الكليات، لا يرتكبون شططاً في الجزئيات، وأي مجتمع من المجتمعات الراقية اليوم لا يحاسب على مثل ذلك" ومن ثم فإن موقف بعض العرب وانتقادهم للصهيونية على بعض التصرفات الطائشة أو بعض الأخطاء هو موقف قاصر، فالمعيار هو الكليات والعموميات، ولديه أن الصهاينة في العموم على حق، وما يقومون به في فلسطين حق مشروع، لا يجب الاقتراب منه.

صحيح أن شميل لم يحدد لنا ماذا يعينه بالجزئيات ولا حدود الشطط أو التجاوز فيها؟ ويبدو أن هذه الجزئيات ليست موضع اهتمام لديه، فقد قطع بأن المجتمعات الراقية لا تحاسب على هذه الأمور، ولا تؤاخذ أحداً بها، فالمهم عنده الكليات، الغريب أن شميل طبيب بالأساس، وفي الطب والعلم تلعب الجزئيات دوراً مهماً ، بينما ينشغل الفلاسفة بالكليات، وفي الواقع العملي وفي العلاقات الاجتماعية والسياسية تكون الجزئيات عنصراً لا يمكن إغفاله أو تجاهله، بل لا تتحقق الكليات ولا تصلح بدونها.

ويرى أن الذين هاجموه اتبعوا هوى النفس ولم يناقشوا

أفكاره ولا اختلفوا مع مفاهيمه، ويسمى نقاده بأنهم أصحاب المناوأة والشكوى العقيمة ".. حتى الساعة لم نسمع إلا تذمراً وشكاية دون وجه عملي واضح صريح نافع وهو مناظرة العمل الحسن النافع بعمل حسن نافع مثله أو أنفع منه لتتبين الغاية الصالحة للعمل الأصلح رحمة بالأرض وخدمة للعمران الحقيقي..."، وإن كان إبراهيم النجار" أتهم الذين يدافعون عن الصهيونية والصهاينة فإن شميل يتهم هو الآخر من يهاجموا الصهاينة بأنهم لديهم مصالح خاصة، يحرصون عليها ويسعون إليها، يطلق عليهم" الذين يغارون على مصلحة أنفسهم ويعرفون أن يطلبوها من وراء المصلحة العامة".

أما المصالح الخاصة أو "مصلحة أنفسهم" فهي ما يعبر عنها في المقال "إقامة الفوارق بين الناس على صفاته خاصة" ولعله يقصد التفرقة على أساس الدين أو الجنس بين اليهود والوافدين وبين السكان الأصليين في فلسطين أو المواطنين في الدولة العلية والمهاجرين الأجانب، وهو يطرح فكرة بديلة عن "الصراخ والعويل" أو الشكوى، تتلخص الفكرة في أن يكف المهاجمين والمنتقدين عن هجومهم إلى تكوين جمعيات أو مؤسسات تقوم بما يقوم به الصهاينة ..." أردت أن يقوموا أو يدعوا أبناء جلدتهم ومواطنيهم وغيرهم من الذين ينون الفوارق بين الناس على صفات خاصة إلي تأليف نقابات وجمعيات تعاون وما شاكل من المشروعات الموضوعة ذات الأسماء المتباينة والغايات المشتركة

ويناظروا الذين يخشون بأسهم على أنفسهم لا على الأرض الصالحة بهم ،بنفس السلاح الذي يخشون منهم حتى تكون النتيجة الحسنة واحدة، وهي إصلاح الأرض لتوليد نفعهم فيها بالإحسان إليها لئلاً تذهب صيحتهم كالصرخة في وادٍ".

المسألة عنده ليست حربا ولا عداء مع الصهيونية، بل منافسةً علي العمران والبناء،إذا كانت الظلمة والنور لا يجتمعان، فهو يري أن الخراب وسعادة الإنسان لا يلتقيان، والمهم عنده هو ما أكده من قبل، إصلاح الأرض وعمرانها، ولذا فإن العداء للصهيونية والخوف والحذر من الصهاينة لن يجدي شيئاً، وحتى لو أمكن طردهم بالقوة لبقيت الأرض دونهم خراباً ينعق فيها البوم وغراب البين "وهو يرى أن البعض الذين يهاجمون الصهيونية ويحذرون من الصهاينة لا يدركون تلك النتيجة، أو أنه لا يعنيهم ولا يقلقهم أن تبقى الأرض خراباً.. ونتيجة الانتقاد والهجوم هي "تمكين العداء وتبعيد المسافات بين المتجاورين ويترتب على ذلك "إخراج الضعيف من هذا الجهاد العقيم المخرب ذليلاً مهضوم الجناح" ولا نعرف هل يقصد بالضعيف المواطن الفلسطيني الذي لا يجد المال ولا مساندة الدولة ويفقد أرضه ؟ أم يعني المهاجرين الصهاينة الذين يتعرضون للانتقاد ويتعاطف هو مع ما يقومون به؟ وإن كانت شواهد الأمور وسياق المقال يكشف أنه يقصد الصهاينة.

وحتى لا يدعى أحد عليه بأنه رد وافترض أن انتقاداً له وهجوماً عليه لم يتم، خاصة أنه لم يذكر نهائياً بالاسم في أي هجوم أو انتقاد، لذا يعلن أنه هو المقصود بهجوم المهاجمين، لسبب بسيط يدركه "إنني لا أعلم من غير الإسرائيليين من تكلم في الموضوع سواي، ولا يطلب مني أن أكون عالماً بجميع من كتبوا".

والواقع أنه لم يكن دقيقاً في ذلك، فهناك من غير الإسرائيليين من كتب في هذا الموضوع، فليس من المعقول أنه لم يكن يتابع مجلة الهلال ولا قرأ الأهرام والمقطم ولا أنه قرأ من كتب قبله وهؤلاء كانوا كبار الكتاب في زمانهم، بالتأكيد هو قرأ وتابع، وإلا لما تناول الموضوع، ولقد أشار في بداية كتابته عن هذه القضية إلي الضجة الهائلة التي تدور حولها والصحيح أنه ربما كان الكاتب الوحيد من غير الإسرائيليين، أي من غير اليهود، الذي دافع عن الصهيونية والصهاينة في فلسطين بهذه الدرجة من الوضوح والعلانية، ونفي عن الفلسطينيين والعرب، حتى حق الاحتجاج على ما يحدث في بلدهم وعلى أرضهم!

الذي حدث أنه فور نشر مقاله الأول بالمقطم، وصله خطاب من أحدهم، ويبدو أن ذلك الخطاب كان مصدر سعادة له، حتى أنه نشره بنصه كاملاً، لاحظ أنه أشار عابراً إلى خطاب آخر بالهجوم عليه، واصفاً كاتبه بالجبان، وكان تقرير شميل لخطاب الثناء أنه "يشكرني أولاً ثم يستحثني على المزيد" وقد رد هو على ذلك

الخطاب بخطاب لم يذكر شيئاً عما جاء فيه، لكنه يبرر نشر خطاب الإشادة به وبمقاله، كي يعلم من يريد ويهمه أن يعلم، أن هدفه من الكتابة في موضوع الصهيونية، هو نفس هدفه من كل كتاباته الأخرى، سواء كانت مقالات أو أبحاث علمية"..إنني كتبت لكي أبين حق الإنسان في الأرض وحق الأرض على الإنسان، وحسبي أن أكون قد نجحت في بيان هذه الحقيقة البسيطة فأرضيت البعض، لأن في الإنسان شيئاً آخر غير العقل وهو هوى النفس قبل كل شيء..

وهكذا فإن القضية محكومة بهوى النفس لدى من أرضاهم موقفه، والخوف على مصلحة النفس لدى من أغضبهم ذلك الموقف، أما هو فيكتب من أجل حق الأرض على الإنسان، لكن لم يقل لنا شيئاً عن حق الإنسان في تلك الأرض، بل تجاهل ذلك الجانب وربما لو تناول حق الإنسان في الأرض لقاده ذلك إلى فكرة الوطن، التي حرص على أن يتجاهلها بالمرة..

أيا كان الأمر، فإن شبلي شميل في حدود علمي حتى الآن لم يعد ثانية لتناول المسألة الصهيونية وفلسطين، ويبدو أنه قال كل ما لديه، ولم يستجد عنده شيء، فضلاً عن أن رأيه أثار الكثير من الغضب، ولم يعمر بعدها طويلاً، فقد توفى مطلع سنة ١٩١٧ في ذروة الحرب العالمية الأولى، وقبل أن يصدر وعد بلفور بأقل من عام، ونسى الجميع هذا الجانب في كتاباته وحياته، ولم يدون في

أي كتاب عنه، ظل شبلي شميل وحتى هذه اللحظة في نظر المجتمع، من مهاجمين ومادحين، هو صاحب نظرية داروين في الثقافة العربية.

الفصل

السادس

6

وقائع وأفكار

لعل القاريء قـد لاحظ أن تناولنا للكتاب والمفـكرين الأربعة قد توقف عند أوائل سنة ١٩١٤، وقبل قيام الحرب العالمية الأولي، رغم أن هناك كـتابات وآراء في نفس الـقضـية بعـد ذلك لكل من رشيد رضا وشكيب أرسـلان، وقد توفى ا لأول سنة ١٩٣٥، قبل قيـام الانتفـاضة الفلسطينيـة الكبرى في ١٩٣٦، وتوفى الثـاني في ١٩٤٦، حين كـانت الأمـور قد تأزمت كـثيراً وبات قـيـام الدولة العبرية أمرا وشيكا.

اخترت التـوقف عند قيام الحرب العالميـة الأولي وقبل صدور وعد بلفور، لأن هذه حـقبة متميزة ومـهمة، ففيهـا جرى - فعليا- وضع أسس الدولة الصـهيـونية وبدأ انتـزاع فلسطين، وفـيهـا كان ممكنا بيسر اتخـاذ موقف مضاد لتلك العمليـة، وهو ما لم يحدث، أما بعد ذلك وصدور وعد بلفور، فقد أخذت المسألة مني جديدا..

والمهم عندي هو الفتـرة الأولي، حيث البدايات الأولي وحـيث نبه الكتـاب وحذروا وتنبؤا بمـا نحن فيه الـيوم، لكن أحدا لـم يشأ أن يسمع وأن يتوقف ويتخذ موقـفا ويقوم بفعل ما - أي فعل - على الأرض.

وربما كان هناك مـتسع من الوقت والجهد والعـمر لمتابعة بـقية المراحل، حتى سنة ١٩٤٨ حيث إعلان قيام دولة إسرائيل.

من بين الكتـاب والمفكرين العـرب، الذين تناولوا - مـبكرا - المسألة الصـهيونية وفلـسطين، لا نجد غير جـورجي زيدان ، حاول البحث في جذور الدعـوة الصهيونية، تاريخاً وفكراً، وقـام بتقديم تعريف علـمي منضبط لها،- بـقدر ما هو مـتاح في تلك الفـترة - ينم عن إدراك واضح لحـجم القضـيـة ومداها، وقـد انعكس ذلك على فهمه للوقائع التي تجري في أرض فلسطين.

وربما يرجع ذلك إلى أن غيره من الكتاب اكتفوا بالتعامل مع القضية على أنها مشكلة طارئة وعابرة على أرض الواقع، هجرات يهودية متزايدة على أرض فلسطين ومنشآت يقوم بها هؤلاء المهاجرون، وكان الجديد أن هؤلاء المهاجرين لم يقتصروا على سكني المدن، بل اتجهوا إلى القرى وما حولها، وعملوا بالزراعة، اهتموا بها أكثر من غيرها في تلك المرحلة، كان المهاجرون الأجانب من قبل يأتون إلى المدن العربية فقط، وغالباً المدن الساحلية والتجارية، فقد كان معظمهم من التجار أو يمتهنون الحرف المتصلة بالتجارة، ومن ثم لم يكونوا يأتون بأعداد كبيرة، بل أفراد أو مجموعات محدودة، ولذا لم تكن هجرات تستلفت الانتباه، لكن المهاجرين الجدد في فلسطين اختلفوا، كانوا جميعاً من اليهود وكان معظمهم من بلاد روسيا وما حولها من "أوربا الشرقية" ولم يكونوا من بلاد "الفرنجة" كما عرفها العرب، أي بلاد أوربا الغربية، تحديدا فرنسا وإيطاليا والجلترا..

ولعل انشغال زيدان بالتاريخ والتأريخ، جعله يتلامس مع تيارات السياسة الدولية في تلك الفترة له كتاب عن قصة دخول العثمانيين مصر وما جرى لها تحت حكم الولاة العثمانيين، وله كتاب آخر عن مشاهير الشرق ، وكان لديه اهتمام بالتيارات التي تبدو غريبة أو ليست موضع اتفاق عام، يمكن أن تجد ذلك في تناوله للتاريخ الإسلامي وقد زاد في اهتمامه مثلا بالماسونية، فأصدر عنها كتاباً، وهكذا لم يكن غريبا عليه أن يكون متابعاً

ومدركاً لـلأفكار الصهيونيـة وتحركات الصهـاينة في العالم، ولعل هذا ما دفعه إلي أن يقـوم بجولة طويلة في ربوع فلسطين، كي يرى الأمـور علي الواقع، ويرى بعين المحـقق مـا يجـري علي الأرض. ولذا فـإن جورجـي زيدان تمتع باكـتمـال ووضـوح الإطار النظري والتـاريخي حول الصـهيـونية وأطلق صـيحـته أن فلسطـين سوف تضـيع إلى الأبد من العرب خـلال مدة وجـيزة إذا سـاوت الأمور على نحـو ما كانت عليـه قبل قـيام الحـرب العالميـة الأولى، وبعد رحيل زيدان وقـيام الحرب سـارت الأمور بأسرع مما كـانت عليه، وانتهت جهـود الصهيونية ورجـالها إلي استصـدار وعد بلفور من بريطانيـا والذي تتعهـد فيـه بإقامـة وطن قومي لليـهود على أرض فلسطين.

غـيـاب الإطار النظري والتـاريخي يـبدو جـليـا لدى شكيب أرسـلان، الملقب "أمـيـر البـيـان"، هو يـرى ويلاحظ كل شيء في فلسطين، ويدرك تفصـيلات وجزئيـات، ربما لم تتح لأي أو لمعظم من زملائه، يدرك الهـجرات اليهوديـة المتزايدة ويعرف أن بعضـهـا يدخل بدفع الرشـاوي للمـسـئوليين العـثـمـانيين بالموانيء والمدن الفلسطينية، ويعلـم أيضاً أن هؤلاء المهـاجرين يدخلون في الرعوية العـثـمـانيـة ليكون من حـقـهـم شـراء وامتـلاك الأراضي وإقـامـة المشـروعات ولكن حين الاحـتكام إلى القـانون تكون المفاجـأة أن بعضـهـم لديه رعوية أجنبية، أي رعـوية لبلد أوروبي من تلك التي يتـمتـع أصحـابهـا بالامتـيـازات داخل أراضي الدولة العـثـمانيـة

كـالانجليـز والفرنسـيين ، ومن ثم لا يمكن مـحـاسـبتـهم بالقـانون العـثـمـاني، ومع ذلك فـهو لا يرى مـا يدعـو إلى الانقـبـاض من الصهيونية، ولديه أسبـابه، ذلك أن مجيء اليهود وازدياد الهجرات إلى فلسطين، شهادة للدولة العثمانية بأنها موطن الأمن والاستقرار في نظر الآخـرين أو بقـول بعـضنا هذه الأيام بلد الأمن والأمـان، والزراعة التي يقوم بها هؤلاء هي في النهاية داخل حدود الدولة.

ويدرك أرسـلان العوامل والدوافع الدينيـة التي تحرك أشـواق اليهود تجاه فلسطين ويسمع أيضاً شكاوى الفلسطينيين وآلامهم من تلك الهجـرات المتزايدة، لذا يقف في منتـصف الطريق، لا يريد أن تفتح الهجرات اليهودية على إطلاقها إلى فلسطين، ويرى أيضاً أن منع الهـجـرة نهائيـاً غـير ممكن، فـاليـهود لـديهم مشكلـة إنسانيـة ويتعرضون لاضطهاد في بعض البـلدان والدولة العثمانية يجب أن تكون أو تظل قبلة القـاصدين ومنجاة المضطهديـن، ولذا اقترح أن تخصص في كل قـضاء داخل فلسطين قـرية بالكامل يهاجر إليـها اليهود ويقيمون بهـا وعليها يؤسسون ما يريدون، هو حل وسط لا يكشف حـسن نيـة بقـدر ما يؤكـد غـيـاب كامـل لمعنى ومـفهـوم الصـهيـونيـة لديه، وربما لو أتيح له قـدر أكـبر من المعـرفـة والعلم لتغيرت آراءه ومواقفه.. كان شكيب أرسلان أمير من أمراء الدروز وتناول القـضيـة بمنطق الأمـير، الذي يفـضّ خصـامـاً أو نزاعـاً بين فريقين أمـامه، فكان لابد له أن يرضى كل فـر يق ويريح كل طرف بدرجة وإلى حد يضمن لكل منهما التواجد والاحتفاظ بماء الوجه، لكن القضية كانت أكبر وأعقد من ذلك التصور.

يرتبط بذلك أن أرسلان يمثل حالة الثقة المطلقة بالدولة العلية، ورغم جوانب الضعف البادية بها كان يراها قوية ولا يمكن للصهيونية أن تهددها، ولعله كان يستحضر التاريخ الإسلامي أمامه، فطوال ذلك التاريخ لم يواجه الإسلام والمسلمون تهديداً ولا عدواناً من اليهود، في وقت من الأوقات هاجم المسيحيون الأوروبيين البلاد الإسلامية، في فلسطين تحديداً وأقاموا بها بعض الممالك، وحاولوا أكثر من مرة غزو مصر عبر البحر المتوسط، وبغض النظر عن الغزو الخارجي، شهد التاريخ الإسلامي بعض عمليات التمرد التي كان يقوم بها المسيحيون في الداخل، أي داخل البلدان الإسلامية.. لكن لم يحدث شيء من هذا بالنسبة لليهود ، فضلاً عن أن عدداً من الرموز والشخصيات اليهودية لمعوا في ظل الدولة الإسلامية، كأطباء ومترجمين وغير ذلك.. وحين طرد اليهود من بلاد الأندلس، لجئوا إلى البلاد الإسلامية ووجدوا ترحيباً، وكانوا ممتنين لذلك، ومن ثم لم تكن هناك مشاكل أو مخاوف تاريخية بين اليهود والمسلمين، لذا لم يخطر بباله، كما تكشف كتاباته أن يكون هناك تفكير لدى اليهود للدخول في نزاع أو صراع مع الدولة العثمانية، ولم يخطر بباله أيضاً أن يفكر اليهود في انتزاع فلسطين من أهلها وتأسيس وطن قوي لهم عليها، وحتى حين طالع بعض الأفكار الصهيونية في هذا الجانب، ورغم قلق الأهالي في فلسطين ومخاوفهم فإنه لم يأخذ الأمور على محمل الجد، ولعله تصور أنها مشكلة وأزمة عابرة، تحل بمراضاة هذا أو

مـجـاملـة ذاك .. وربما دخل في روعـه أن هؤلاء المهـاجـرين إلى فلسطين هم فـي النهـاية عـدة آلاف سـوف يذوبون وسط مـلايين المسلمين . ولعل تصـوراته وفـهـمه للـقضـيـة بما فيـه من تشـوش وارتبـاك ذهني وفكري واضح كـان انعكاساً لتـشـوش أكبـر لدى الدولة العثمانية ذاتها التي لم تستطع أن تـتـخذ موقفاً حاسماً وقراراً صارما في هذه المسألة.

ويختلف أمر رشيد رضا تماماً، فهو لم يكن مؤرخاً ولا أميراً ، هو في النهاية، أقرب إلى المصلح الديني، حتى وإن كان من منظور سلفي كـان مشـغولاً بتـفسـيـر القرآن وبالدفـاع عن الإسلام ضـد منتـقـديـة وضـد المجـددين الذين رأى أنهم أسـرفـوا في الأفكار الحديثـة، رأى، وهو تلميذ لـلشيخ محـمد عبـده، وكان عبـده بعد فشل الحـركة العرابيـة، قرر أن يقاطع السـاسة والسيـاسة، وإن لم يستطع في النهاية.

لكن رشيـد رضا لم يقـاطع السياسـة والساسـة ولا لعن فعل ساس، بل تابـع الأمور السيـاسيـة، ولـم يفعل مـثل أستاذه الـشيخ محمد عبده، فلـم يحـاول أن يقـف ضـد سياسات الدولة العلية، ولا أن ينتقد مواقفها، بل ظل دائماً عثماني الهوى والتوجه، مدافعاً عن دولة الخلافة، لذا حين ألغيت في اسـتانبول، كان من الذين ساندوا توجه الملك فؤاد في مـصر ليصبح خليفة للمسـلمين، وساند رشيد رضا بوضوح الملك عـبدالعزيز آل سعـود حين كان يؤسس المملكة

العربية السعودية، باعتبار أن ابن سعود يؤسس في نهاية الأمر دولة إسلامية، وفي كل هذا آثر الشيخ رشيد رضا عدم الاصطدام المباشر بالحكام .. وفي ظل هذا لم يفارق قلمه الواقع وقضاياه، برغم انخراطه في الأمور والقضايا الدينية، ومن يتابع مقالاته التي نشرها على صفحات مجلته "المنار" يجد أنه كان يتابع القضايا والمسائل المطروحة في الواقع، سواء كانت سياسيه او اجتماعية أو ثقافية ويدلي فيها بالرأي، مثل قضية الشيخ علي يوسف مع الشيخ السادات، حين تزوج علي يوسف صفية ابنة السادات... وهكذا

وعندما ظهرت المشكلة الصهيونية تصدى لها بقلمه، ولعله أول كاتب ومفكر عربي كبير يتصدى لهذه القضية، كتب عنها منذ ١٨٩٨، أي وهي لا تزال في الحالة الجنينية .

ويعد رشيد رضا نموذجاً لتطور الوعي بالمسألة، حين كتب أول مرة، عام ١٨٩٨، فإنه لم يكن يتناول قضية يعدها خطيرة، بل رأى فيها الجانب الدعائي، فاختيار اليهود فلسطين هو شهادة إيجابية للدولة العثمانية بأنها لا تفرق بين أصحاب الديانات، كما يدعي عليها الأوروبيون، صحيح أن اليهود تدفعهم أهواء دينية تجاه فلسطين، لكن الأهم من ذلك هو الأمن والسلام الذي يجدونه في رحاب الدولة، وهو أيضاً يرى في هذه الهجرة نتيجة إيجابية أخرى، فلعلها توقظ أبناء البلد من خمولهم، فينشطون، على طريقة أرنولد توينبي فيما بعد، التحدّي والاستجابة، أو وفقا لما

يقول به بعض مفكري الإسلام عن نظرية المدافقة .. ولكن رشيد رضا طرح ذلك سريعا وعابرا رأى أخلاقي وتربوي سريع، دون التطرق إلى أي هدف بعيد أو التعرف على كنه الأفكار والأيديولوجيا التي وراء هؤلاء المهاجرين، قدر كبير من البراءة وحسن النية، لكنه يعاود تناول نفس القضية في ١٩٠٢ وبدأ يتكشف لديه أن هناك أهداف أخرى أبعد من حكاية الأمن والسلام أو تسامح الدولة مع أولئك المهاجرين من اليهود، وينادي بتكوين جمعيات عربية ، على غرار الجمعيات الصهيونية، ولعله كان يقصد تلك المنظمات التي أنشئت وتولت تمويل الهجرات إلى فلسطين ودعمها ماليا وسياسياً، وكان تصوره أن الجمعيات العربية تقوم بدعم الفلاح الفلسطيني لكن لم تجد دعوته من ينتبه إليها أو يتبناها، وظلت الأمور تسير كما هي في فلسطين، العرب يضجون ويشكون، أما الصهاينة فيفدون ويستوطنون وتتسع ممتلكاتهم ومشروعاتهم.

حين وصلنا العام ١٩١٤، يمكننا القول أن وعي رشيد رضا كان قد اكتمل بحقيقة ما يجري وما يمكن أن يحدث على أرض فلسطين، لذا قدم اقتراحات ثلاثة، لم يؤخذ بأي منها، الأول: أن يتم التفاهم مع الصهاينة والوصول إلى حل سياسي للموضوع، وكان ذلك ممكناً برأيه، شريطة أن يدخل إليه العرب من بابه، وهو مالم يحدث.

الثـاني : تأسـيس الجـمـعـيـات واتخـاذ الإجـراءات لوقف الهجـرات إلى فلسطين وحمـاية الأراضي والممتلكات، ويـكفي ما اشـتـراه الصـهـاينة أو أخـذوه من أراضي الـدولة. وهذا أيضـاً لم يتحقق ولم يؤخذ على محمل الجد.

الثالث: هو الاستعداد والقـيام بطرد المهاجـرين من فلسطين، والتـخلص نهـائيـاً من هـذا الإشكال، ولكنه قـدم ذلك الاقـتـراح باعـتـبـاره " أنه الكي بالنار"، أي لا يتم اللجـوء إليـه إلاّ في حـالة الضرورة القصوى وبعد فشل كـافة الحلول والاقتراحات الأخرى، فـالكي يكون آخـر المطاف وحـيث أنـه لم يتم تجـريب أي حل، أو محاولة للحل، فلم يكن هناك داعياً أو مبرراً لذلك الاقتراح.

ورغـم كل مـا يقال عن سلفـيـة رشيـد رضا، فـإنه اقتـرح كل البـدائل، وبدأ بما يمكن أن نسـميـه الحل السلمي والودي، وسـوف نلاحظ أن الطابع العـملي هو الذي سيطر عـلـى اقتراحـاته، وليس الطابع الفقهي أو الأيديولوجي . فالرجل كان يعالج مشكلة عملية وفعلية، أي الفعل هو الذي يسيطر عليها.

عند شبـلي شميل، المشكلـة ذات طابع مختلف، وربمـا ليست بالمعنى الذي طرحه غـيره من المفكرين والكتاب؛ مهـاجرون جاءوا يعـمرون ويزرعون والأرض هـي المستفيدة وعلى الآخـرين - أي العـرب - أن يكفـوا عن الشكوى والندب وأن ينـافسـوا هؤلاء المهـاجرين في هذا المجـال، وإن كان يرى أنه لا إمكانيـة للمنافـسة

ذلك أن أولئك المهاجرون أكثر تفوقاً ، ومن ثم لا يبقى - عمليا - للعرب إلا أن يحاولوا التتلمذ على أيديهم ويعدونهم أساتذة ومدرسة لهم . وهكذا تعامل شميل بعقل محايد أو بارد تجاه قضية ليست كذلك، مشكلة شميل أنه حاول أن يطبق النظرية العلمية في تطور الكائنات على قضية اجتماعية وإنسانية، إن التطور الطبيعي الذي قال به داروين جرى في مئات الآلاف من السنين وربما ملايين السنين، وما جرى في فلسطين وقع في سنوات محددة!! إختزل شميل المسألة اختزالاً شديداً ، متجاهلاً أو متناسياً عدة حقائق، من بينها أن هؤلاء المهاجرين، جاءوا بحكم الديانة وبهوى ديني وأيدلوجي، وأسقط شميل عدة اعتبارات دقيقة مثل قيمة الوطن ومفهوم الأمة والارتباط بالأرض، ورغم أن شميل شغل وكتب كثيراً في مقالاته حول العمران، لكنه هنا تجاهل الكثير من عناصر العمران والمجتمع.. وكان مقتنعاً برأيه ومصرا عليه، لذا لم يزعجه الهجوم الذي تعرض إليه والانتقادات التي وجهت إلى آرائه ومواقفه، بل ازداد تمسكاً وإصراراً، وكان رأيه أن الهجوم والانتقاد وجه إليه هو شخصياً ، لكن أحدا لم يناقشه في آرائه وأفكاره!

الكتاب والمفكرون الأربعة ينتمون إلى مواقع فكرية متباينة وحملوا مناهج مختلفة، ورغم ذلك فهناك عناصر مشتركة في تعاملهم مع القضية، هم تناولوا الهجرات اليهودية الصهيونية بعيداً عن أي تصورات أو أفكار دينية، ليست صراعاً إسلامياً يهودياً أو

إسلامياً - مسيحياً مع اليهود واليهودية، هم جميعاً من خلفيات دينية ومذهبية متعددة، رشيد رضا مسلم سني وشكيب أرسلان مسلم درزي أما جورجي زيدان فهو مسيحي أرثوذكسي وشميل مسيحي ماروني، وهذا التعدد والتنوع جعل المسألة العقائدية ليست العنصر الحاسم، لذا لم يتوقفوا عند ما يعتبره البعض اليوم عنصراً حاكماً في فهم القضايا، وتحديداً هذه القضية.. فلم يقدموا مفاهيم أو تحليلات ورؤى دينية، ويمكن أن نتبين لديهم جميعاً رقياً ثقافياً وإنسانياً، تجنبوا العنصرية في الفهم والتحليل، بل أكثر من ذلك كانوا مقدرين ومدركين لمحنة اليهود وما تعرضوا له من اضطهاد تاريخي في عدد من بلاد أوربا خلال القرن التاسع عشر تحديداً، وكان لديهم قدر كبير من التعاطف مع اليهود وعدم الممانعة في مساندتهم، وتأسيسا علي ذلك لم يرفضوا الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حذروا فقط من تزايد معدلات الهجرة واقتصارها على فلسطين وحدها، الأمر الذي يهدد بأن يبتلع المهاجرون كل فلسطين ويطرد العرب منها.

وربما يكون المناخ الثقافي الذي عاشه كل منهم، قد ساعد كثيراً على ذلك، وهو مناخ لم يزن الناس بمعيار انتمائهم الديني أو اعتناق مذهب معين، بل بمقدار ما يقدمه والدور الذي يقوم به، وقد عاشوا جميعاً بين مصر والشام، وكانت المشاكل المطروحة على المجتمع آنذاك تعلق بتحقيق النهوض والحد من الاستبداد والتسلط الذي تمثله الدولة العلية أو ولاتها وبحث العلاقة مع

أوروبا ، للحد من هيمنتها واحتلال بعض بلاد المنطقة في رأي فريق من الباحثين أو الأخذ عنها والتعلم من الأوروبيين في رأي فريق آخر، وهي قضايا لا تتعلق بالديانة أو المذهب ، وحين ظهرت المسألة الفلسطينية تعاملوا معها بتلك العقلية، ولم تكن منفصلة عن بقية القضايا التي يثيرها هؤلاء الكتاب والمفكرون، لقد كان تصرف المسئولين العثمانيين في فلسطين والتحايل على قرارات الدولة والسماح بدخول الهجرات اليهودية، هو أحد تجليات الاستبداد والتسلط العثماني، وتدخل الجمعيات الصهيونية الأوروبية لدى الدولة العلية ونجاح هذه الجمعيات في العمل بحرية داخل فلسطين هو أيضاً نموذج من الاختراق الأوروبي لبلاد المنطقة ومحاولة السيطرة عليها.. وقيام المزارع الصهيونية والعمران الذي سعد به شبلي شميل ورحب به شكيب أرسلان، ربما رأى فيه كلا منهما نموذجا للنهوض وللتحديث الذي تمناه كثير من المفكرين في بلادنا العربية أو الشرقية على حد تعبير ذلك الزمان.

وسوف نلاحظ أنهم جميعا لم يتوقفوا عند الفكرة الصهيونية لمناقشتها أو القيام بعملية انتقاد أو هجاء لها، كما كان يعنيهم ألا تضيع فلسطين وألا يتغلب عليها المهاجرون الجدد.

على أن ما قام به هؤلاء جميعا وغيرهم من الكتاب يكشف محنة ولنقل مأساة الكاتب والمفكر والباحث العربي المعاصر، ويمكن أن يكون مفهوما عدم اهتمام الدولة وصناع القرار بما يقدمه

الكتـاب من آراء وما يطرحـون من أفكار وما يثـيرونه من مـشاكل وقـضـايا، ذلك أن صـاحب السلطة قـد يحـاول أن يتـجنب فـئـة الكتاب، أولئك الذين يذكـرونه بما ينبغي عليه القيـام به أو القصور الذي تقع فيـه سياساته أو مـا يقوم به المسئولون في الغـرف المغلقة ولا يعرفـه الأهالي والجمهور، لكـن المؤسس حقا هو عدم اهتـمام الأهالي أنفسهم بما يكـتب أو التعامل معه بسلبـية، ومن ثم لا يترك الكاتب الأثر المطلوب، ويكتـفي بقراءته ومـتابعـته مـجمـوعة من زملائه الكتاب أو المثقفين والنتـيجة عزلة الكاتب ودورانه في حلقة ضيقة، فلا السلـطة تأبه به ولا الجمهور الذي يكتب من أجله، وفي القـضـيـة التي نحن بصـددها، فـإننا لا نـسـتطيع القـول أن أيا من الكتاب الأربعة كان في خانة المعادين أو الكارهين للدولة العثمانية وكان ذلك أدى إلي أن يتوقف رجالها بـجدية أمام كتابات وأفكار هؤلاء المفكرين والكتاب، لكنها لم تفعل.

وكـان الموقع أن يتـجه الأهالـي والجمـهـور أو يهتـم الأعيـان والوجـهاء باعـتبـارهم يمثلون الأهالي تقليـديا بالاقـتراحـات التي قدمها الكتـاب والتحذيرات التي وجهوها من الصهيـونية وما تقوم به على أرض فلـسطين، لكنهم لم يـفـعلوا وذهبت الصـيـحـات والنداءات أدراج الرياح.

وقد يكون مفهـوما ومقبولا أن لا ينشغل الجمـهور بالخلافات أو القـضايا الأدبيـة والفكرية المحضـة التي يثـيرها الكتـاب، فليس

مطلوبا أن ينشغل الناس عموما بالفروق الدقيقة بين الرواية والقصة القصيرة أو بين القصيدة العمودية وقصيدة النثر أو العلاقة بين البنيوية والتفكيكية أو الحداثة وما تعنيه وما بعد الحداثة وما تقود إليه، لكن ليس مفهوما ولا مقبولا ألا ينشغل الناس بأمور وقضايا واقعهم اليومي وتصاحبهم على الأرض في صحوهم ومنامهم.

نلاحظ أيضا أن اقتراحا واحدا قدمه الأربعة وإن جاء بتسميات مختلفة، وهو تشكيل جمعيات مضادة للصهيونية تقوم بمساعدة الفلاح الفلسطيني على زراعة الأرض وتحسين الإنتاج، وأن تدّ الفلاح بالمال لشراء أراضي الدولة أو الأرض البائرة التي يشتريها الصهاينة.

هكذا اقترح رشيد رضا وشكيب أرسلان، وهو نفس اقتراح زيدان وشميل وأن استعملا التسمية "نقابة" لتقوم بنفس الدور والمهمة، وهو اقتراح عملي، وكان يمكن القيام به بعيدا عن الدولة وسطوتها، وهو ما كان يسمى وقتها العمل الأهلي ويطلق عليه الآن المجتمع المدني .. واتفاق الأربعة على هذا الاقتراح يعني أنه كان الحل المتاح والممكن وقتها. لكن أحدا لم يأخذ به أو يعمل عليه، طبعا كان واجب الوجهاء والأثرياء والأعيان والمثقفين السعي نحو تحقيق هذا الاقتراح وهو ما لم يقوموا به.

الغريب أن الباحثين والدارسين سواء الذين تناولوا قضية

فلسطين والصهيونية أو أولئك الذين تناولوا حياة وأفكار كل كاتب من الكتاب الأربعة، لم يتوقفوا عند آرائهم وأفكارهم في الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، فطواها النسيان وآلت إلى المجهول، وحصر كل كاتب ومفكر في عنوان، يختزله ويخفي بقية معالمه الفكرية وكتاباته، فقد اختزل رشيد رضا في أنه تلميذ الإمام محمد عبده الأقل تسامحاً منه والأكثر سلفية وهكذا بالنسبة لكل شخصية.. وفقدت ذاكرتنا الثقافية والنضالية جزءاً مهماً من تاريخها ..

الملحق

لم يكن ما يجري في فلسطين موضع اهتمام الكتاب والباحثين العرب فقط، بل شغل عدداً من الكتاب الأجانب المتابعين لأحوال المنطقة أو كانوا على صلة ما بما يجري فيها، ومن هؤلاء المستشرق، الأب هنري لامنس، وهو اسم يعرفه جيداً المتخصصون والمهتمون بالدراسات الإسلامية والعربية، وله العديد من الدراسات والأبحاث حول الخلافة الإسلامية، ودراسات عن العصر الأموي، وله مجموعة من المصنفات حول كتاب الأغاني للأصفهاني، وفي هذا الصدد يصفه د. عبدالرحمن بدوي في موسوعته عن المستشرقين، بأنه كان "شديد التعصب ضد الإسلام" ولكن لم تكن الدراسات الإسلامية هي كل نشاطه، فقد اهتم بالحالة المعاصرة في المنطقة، لذا أصدر كتابا عن تاريخ سوريا ومجموعة من الدراسات في هذا المجال، ومن هنا كان اهتمامه بفلسطين وهجرات اليهود إليها.

ولد هنري لامنس في بلجيكا عام ١٨٦٢ وفي صباه جاء إلى بيروت حيث درس في كلية القديس يوسف ثم سافر إلى إنجلترا وفيينا إلى أن رجع ثانية إلى بيروت للتدريس في الكلية التي تعلم بها وكان ذلك في العام ١٨٩٧ حيث صار معلماً للتاريخ وللجغرافيا، وكان لا منس ينشر في بعض المجلات والدوريات العلمية ومن بينها مجلة "المشرق" وهي مجلة أصدرها لويس شيخو اليسوعي ، صاحب الدراسات الأدبية المهمة، صدرت المجلة أول مرة في عام ١٨٩٨ وكانت تصدر مرتين في الشهر، بإدارة آباء كلية القديس يوسف في بيروت، وكانت تطبع هناك، وكان لامنس ينشر فيها بعض دراساته، ويؤكد د. بدوي أن لامنس كان يكتب بالفرنسية ثم يتولى غيره ترجمتها إلى العربية، لكننا نفهم من موسوعة نجيب العقيقي عن المستشرقين أن لامنس كان يكتب

بالفرنسية وبالعربية، وبعد وفاة لويس شيخو سنة ١٩٢٧ خلفه لامنس في إدارة المجلة. وليس متوقعا ما قال به د. بدوي من أنه لم يكن يعرف العربية ويكتب بها فالمجلة كانت تصدر بالعربية وقد زار لامنس القاهرة عدة مرات وألقى محاضرة في الجمعية الجغرافية المصرية وكانت عن "سوريا ورسالتها التاريخية في العام ١٩١٥ .

وفي العدد ٢٢ من مجلة المشرق، الصادر في سنة ١٨٩٨، شهر نوفمبر ، نجد دراسة للأب هنرى لامنس بعنوان مهم هو "اليهود في فلسطين ومستعمراتهم" الدراسة تقدم رصداً بعدد المستوطنات التي أقامها اليهود في فلسطين وقصة إنشاء كل مستوطنة ومن يقف خلفها سواء بالمال أو الدعم السياسي من الجمعيات أو كبار رجال المال في أوربا.

وتوفى لامنس في بيروت عام ١٩٣٥ واعتبره عدد من الكتاب العرب "حجة زمانه" وبلغت كتبه ومصنفاته بالعربية ١٢٧ ما بين تحقيق وتقديم أعمال تراثية أو تأليف وبحث وبالفرنسية ١٨٥ .

ونظراً لأهمية دراسته عن "اليهود في فلسطين ومستعمراتهم" نعيد نشرها هنا كاملة.

اليهود في فلسطين ومستعمراتهم

للأب هنري لامنس اليسوعي

أتتنا الأعداد الأخيرة من جرائد الآستانة العلية وفيها كلام مسهب عن اليهود وانتشارهم في فلسطين. وربما استلفت أصحاب هذه المقالات أنظار ذوي الأمر إلى استدراك ما يعدونه مخالفا لنظام الدولة ويؤيدون قولهم بذكر الأوامر الشريفة التي كررتها مراراً الحضرة السلطانية في هذا الشأن. فكان ذلك داعياً لنا إلى البحث في المستعمرات اليهودية في فلسطين لنفيد القراء عن عددها وشيء من أحوالها مستندين في ذلك إلى تقارير أعلنها اليهود في مجلاتهم ونقلتها عنهم مجلة الجمعية الفلسطينية وقد تحققنا بنفسنا صحة بعض هذه الإعلامات في سفرة باشرناها في تلك النواحي.

المستعمرات اليهودية في فلسطين خمس تشتمل على عدة محال وهي: مستعمرة يافا وضواحيها. ثم مستعمرة القدس الشريف. ثم صفد وبلاد بشارة. ثم حيفا وتوابعها وأخيراً مستعمرة الحوران وعبر الأردن.

يافا وضواحيها

أنشأت الجمعية الروسية المدعوة "مساعدة الفلاحين والصناع اليهود في فلسطين والشام" لجنة في يافا سنة ١٨٩١ ولت تدبيرها المهندس زيب تيومكين وغاية هذه اللجنة أن تنظر في أمور

المهاجـرين الإسرائيليين وتسـاعدهم أدبيـاً ومادياً في ابتـياع أراض واسعة يقوم بتثميرها الأفراد أو الجماعات منهم.

والجمـعيـة الروسيـة المذكورة ليست سـوى فرع من جـمعـية أخرى يهودية ممتدة في بلاد كثيرة تدعى "أحـباء صهيون" وأعضاء هذه الجـمعـية ينـقدون في أوقـات معلومـة شيئـاً من الدراهم ثم يقـترعـون على السـفر إلى فلـسطين فمن خـرج أسـمه دفـعت له الجمعية حق السفر وعـينت له أرضاً يفلحها في الأراضي المقدسة. وعـدد اليهـود اليوم في يافـا ينيف على ٦٠٠٠ لهم مـحلة واسعـة يدعونها المنشية.

وفي شـمال شرقـي يافا على طريق نابلس ترى مـقامـاً يدعى "نوة صدق" فيه نيف وعـشرون بيتا قد ابتنته جمعـية أخرى لليهود وهذه المنازل يدفع السكان حـقها بأقـساط سنوية متـهاودة . وهناك بستان واسع يخص ورثة صاحب المصرف الشـهير في لندرة السير موسى منتيفيوري استأجره بعض يهود القدس.

وفي ضواحي يافا مستعمرات أخرى هذه أسماؤها:

١) منزل إسـرائيل مـوقعـه على مـقربة من يافـا بقـرب طريق العربات المؤدي إلى القدس. وهو عبارة عن حديقة واسعة الأرجاء كثيـرة الأشجار وافرة الغلات تبلـغ سعتها نحـو ٢٤٠ هكتاراً وقد جعلهـا منشئـها شـرل نتر (Ch. Netter) سنة ١٨٧٠ كمكتب زراعي يتخرج فيه زهاء ستين شاباً من اليهود على الفنون الزراعية.

٢) عيون قارة وفي العبرانية رؤوس صهيون على مسافة سبعة كيلو مترات من قرية يازور على طريق غزة وهي مستعمرة يهودية باشر بها سنة ١٨٨٢ ستة إسرائيليين من الروس ثم دخلت في حمى البارون أدمند دي روتشيلد. وهناك مزدرعات واسعة تمتد في مسافة ٥٩٤ هكتاراً ومما غرس فيها أشجار اللوز والتوت والخروع وفي كرومها ما يقارب ٨٠٠,٠٠٠ جفنة أجتنى منها أصحابها في سنة ١٨٩٠ نحو ١٥٥,٠٠٠ كيلو عنباً. وبيوت هذه المستعمرة خمسون بيتاً ولها كنيس للصلاة ومستوصف ومدرسة وكلارات واسعة وعدد سكانها نحو ٢٧٠, وكان أصحاب هذه المستعمرات مصممين النية على فتح معامل جديدة للحرير والزجاج واستقطار الورد لكننا لا نعلم أخرج ذلك إلى عالم الكيان أو بقى في حيز الآمال. وهذه المستعمرة على ساق من النجاح نالت ما لم تنله غيرها من العمران. ولخمرها بعض الشهرة يتاجرون به في البلاد وأكثر غلات هذه المستعمرة يبتاعها عملة روتشيلد وهو قد جعل لكثير من المستعمرين راتباً شهرياً.

٣) ملك راوبين وهو وادي حنين في جنوبي المستعمرة السابقة على مسافة نصف ساعة منها مساحتها ١٣٥ هكتاراً. والفضل في إنشاء هذه المزرعة لرباني أسمه راوبين كان حاخاماً في خرشنة (Cherson) وهي تحت نظارة لجنة يافا الروسية. وأهلها أثنا عشر عائلة يعنون بغرس الكروم والأشجار المثمرة وتعسيل النحل وتحت إدارتهم كثيرون من الفلاحين الوطنيين

يكلفونهم بأتعاب الحراثة والأشغال الشاقة ويكتفون بنظارة الأعمال.

٤) خربة ديران وفي العبرانية السهول بقرب بلدة رملة وهي مستعمرة أحدثتها جمعية أعيان اليهود الروسيين سنة ١٩٠ وهي عبارة عن أرض فسيحة لا تقل عن ٩٥٠ هكتاراً مقسمة إلى ٦٥ قسماً كافية لمعاش ٦٥ عائلة وقد غرس في هذا المكان ١٧٠٠٠٠ جفنة و١٠٠٠ فصيلة من التوت. لكن اليهود لا يحبون سكنى هذا المكان وحراثته والعيال الساكنة فيه إلى الآن تبلغ العشرين.

٥) محطة عاقر (ويقال عكرون) وهم يدعونها تذكار بيت الله جنوبي غربي الرملة بقرب يمنية. وهي أيضاً من مشروعات البارون روتشيلد في سنة ١٨٨٣ مساحتها ٧٠٠ هكتار يستثمرها ١٥٠ يهودياً. ولهذه المستعمرة كنيس ومدرسة كعيون قارة.

وقد مررنا في هذا المكان منذ سنتين فوجدناه عامراً زاهياً بضروب الأشجار المثمرة وكانت رباه متشحة بثوب أخضر من المزدرعات تمتد فيها سروغ الكرم النضرة لكننا لم نشاهد شيئاً من الحبوب كالقمح والذرة من احتياج الفلاحين إلى هذه الغلات والسبب أن اليهود لا يجدون في الحبوب الأرباح التي يقصدونها فيهملون زراعتها . وما أذهلنا في رحلتنا هذه أننا لم نر في الكروم والحقول غير فلاحين بلديين أجرهم أصحاب الملك بأثمان بخسة. وبيوت هذه المستعمرة إذا شاهدها المسافر من بعيد حسنة المنظر

مسقفة بالآجر الأحمر وجدرانها مبيضة بالملاط. ولما اقتربنا منها وجدناها قذرة متداعية البنيان مع أنها حديثة البناء.

٦) قطرا من منشآت جمعية "أحباء صهيون" بدأت سنة ١٨٨٤ . موقعها على بعد ساعة من عكرون المذكورة. وكانت الغاية من إنشائها إعانة بعض الدارسين الروسيين المهاجرين من روسية حتم عليهم أن يجردوا أنفسهم للفلاحة. وليس فيها الآن إلا عشرة بيوت يسكنها نحو تسعين نفساً من الطلبة المذكورين وهم اليم يأملون تملك هذه الأراضي واستثمارها على حسابهم الخاص. ومساحة هذه المزرعة ٢٨٠ هكتاراً وهي تصلح للحبوب وعدد دواليها ٨٠٠٠٠ .

٧) قسطينة وتعرف ببئر طوبيا تعد أيضاً من مستعمرات اليهود تبعد ساعة ونصف ساعة عن قطراً أنشأها روتشيلد سنة ١٨٨٨ وخصصها بيهود بسارابيا واليوم يشتغل فيها عشرون فاعلاً كعملة لهذا الصراف الكبير الثروة وسعة هذه الأرض ٦٣٠ هكتاراً.

٨) أم لبيش (ملتس) وفي اصطلاح اليهود "فتح تقوه" على طريق يافا إلى نابلس شمالي شرقي يافا نزلها يهود القدس منذ سنة ١٨٧٨ فلم يستحسنوا هواءها. ثم عاد المهاجرون الروس سنة ١٨٨٢ فاستوطنوها تحت نظارة جمعية "أحباء صهيون" وهي أرض مساحتها ١٣٠٠ هكتاراً لروتشيلد منها ٥٠٠ هكتار

يستثمرها ٩٤ عائلة أي نحو ٤٠ نفس وهي مقسمة بينهم إلى ١٣٣ قسماً وقد غرس فيها مئتا ألف غرسة كرم. وكان قسم من يهود ملتس سكنوا ضيعة تدعى يهودية تبعد عنها ثمانية كيلو مترات إلا أنها لم تنجح ولليهود في لد أرحية ومعمل لتصفية الزيت.

القدس الشريف وضواحيه

كان اليهود قبل بضع ثلاثين سنة يسكنون داخل أسوار المدينة المقدسة فلم يزل يتوارد عليهم المهاجرون ويزدادون سنة فسنة حتى اضطرهم الأمر أن يبتنوا لهم منازل خارج البلدة وغربيها وصارت هذه المحال متلاصقة فتراها أشبه بمدينة كبرى تمتد في ظهراني القدس بين باب العمود وباب الخليل.

ثم بنى المثرى الشهير مونتيفيوري عند باب صهيون وبركة السلطان مستعمرة كبرى قسمها بين اليهود المهاجرين من شمالي أوربة المعروفين بالأشكنازيم ويهود جنوبي أوربة من الأسبان والبرتغاليين المسمين سفارديم فاسكن الأولين في شمالي المستعمرة الجديدة ودعاهم "بيت ناتان" وأنزل الآخرين في الجنوبية ودعاهم "يمين موسى" وبيوت هذه المستعمرة يستأجرها أولاً أصحابها ولا يزالون سنوياً يدفعون مبلغاً معلوماً حتى تصير بعد بضعة أعوام ملكهم الخاص.

وللمستعمرات القدس أحياء عديدة يبلغ الحي من ٣٠٠ إلى

٤٠٠ بيت ولكلها أسماء عبرانية تميزها وأقدم هذه الأحياء يدعى "نحلة شبع" أي ملك السبعة أنشئ سنة ١٨٦٩ . ثم "ابن يعقوب" أي صخرة يعقوب سنة ١٨٧٠ . ثم "مساكن إسرائيل" قرب ميتم الألمانيات غربي المدينة ١٨٧٦ . ثم "مزكرة موشي" أي ذكر موسى سنة ١٨٨٠ . تم "أهل موشي" أي خيمة مويس سنة ١٨٨٣ ثم "سكوت شلوم" أي مساكن السلام سنة ١٨٨٧ . تم بيت يهودا سنة ١٨٨٨ . ثم "شعر فنا" أي حجر الزاوية . ثم "بيوت تيمن" سنة ١٨٩٠ لليهود المهاجرين من اليمن كانوا تقاطروا إلى القدس ظناً منهم أن مسيحهم ظهر ليشيد ملك إسرائيل . ثم "شمعون الصديق" سنة ١٨٩١ . وليهود بخاري محطتان تدعى إحداهما "بيوت بخاري" والأخرى "أهل شاومو" أي خيام سليمان . هذا إلى منازل أخرى كثيرة تحدق بالقدس كالشوار بالزند. أما عدد اليهود الساكنين في القدس وضواحيها فبين أربعين ألفاً إلى خمسين ألفاً . وأكثرهم يرتزقون بالصنائع والمتاجرة بالأشغال التقوية كالمسابح والصوب لكنهم يفضلون الصرافة على ما سواها. وإذا رأيت الدراهم في يد اليهودي فقل "أعطيت القوس باريها".

٣- صفد وبلاد بشارة

صفد إحدى المدن الأربع المقدسة عند اليهود وهي: أورشليم والخليل (جبرون) وصفد وطبرية. وعددهم في صفد يربى على ثلاثة عشر ألفاً لا يتجاوزها في ذلك غير القدس الشريف. وقد

أنشئت فيها سنة ١٨٩١ جمعية تدعى "هجليليم" أي الجليليين تسعى في اقتناء الأرزاق ليمتلكها اليهود.

وان سرت نحو ميلين غربي صفد وجدت ضيعة تدعى ميرون يحج إليها العالم اليهودي لأن فيها على زعمهم قبور بعض مشاهير الحاخامين الأقدمين كيوخنان سندلار وشمعون ابن يوحاي والبربانيين الأعظمين هلل وشماي . وليهود طبرية هناك أرض سعتها مئة هكتار. ولهم ١٣٥٠ هكتاراً في كفر سبت بين الناصرة وطبرية و٤٥٠ هكتاراً عند فرعيم بقرب صفد. ولبعض اليهود في حطين ٩٠ هكتاراً أرضاً.

١) "روش فنا" أي رأس الزاوية مركزها في قرية جاعونة بين صفد والأردن لبعض يهود رومانية في سنة ١٨٨٢ وهي اليوم ملك روتشيلد بلغت مساحتها ٧٢٠ هكتاراً يفلحها ٢٠٠ عامل وفيها تزرع الحبوب ودواليبها ٢٠٠,٠٠٠ .

٢) عين الزيتون شمالي صفد ابتاعها اليهود سنة ١٨٩٠ ليستثمروها غلاتها ومساحتها ٤٣٠ هكتاراً .

٣) مستعمرة (محناييم) مع ملحقاتها عرب الأكراد وعلمما وملوطية وهي أخصب قرى بلاد بشارة بين صفد وبحيرة الحولة. وكل هذه الأملاك تخص روتشيلد وهي واسعة جداً فإن محناييم وحدها مساحتها ٤٧ هكتاراً.

٤) مستعمرة جسر الأردن المعروف بجسر بنات يعقوب. اشترى هناك بعض ذوي الثروة من اليهود سنة ١٨٨٤ أراضي تبلغ سعتها ٢٠٠ هكتاراً وأحل فيا قوماً من أمته ليمتلكوها شيئاً فشيئاً بأجور شغلهم.

٥) "مشمر هيردن" أي حراسة الأردن وهي قرب مستعمرة جسر الأردن تبلغ ١٨٠ هكتاراً امتلكها رباني من صفد وغرس فيها ٧٠٠٠٠ دالية لعصر الخمرة .

٦) خربة زبيد وبالعبرانية على شاطئ بحيرة الحولة اقتناها يهود روسيون سنة ١٨٨٣ ثم تملكها روتشيلد سنة ١٨٨٨ مساحتها ٢١٦ هكتاراً . يسكنها قوم من اليهود ويرتزقون بتقطير الماورد وصيد سمك البحيرة إلا أن الحميات تكثير فيهم وتفتك بكثيرين.

وقد سمعنا أن اللجنة الفلسطينية الباريسية حصلت منذ زمن قريب على ألف هكتار من الأراضي الواقعة غربي عيون الأردن حيث تملكوا قرية المطلة. واليوم ترى السماسرة اليهود يطوفون معاملة معاملة مرج عيون لتحصيل أملاك جديدة فيها.

٤ - حيفا وملحقاتها

كانت لجنة "أحباء صهيون" في عام ١٨٩١ تملكت ضيعة

كفرعتـاً ثم بادرت أن تشتري جزافاً بقاعاً واسعـة على سيف البحر بين حيفـا وعكا ولما كان الأمر على وشك النجـاز علمت الحكومة السنية بهذا الأمر وفسخ عقد البيع بإرادة سنية لئلاً تقع على سهول عكا المخصبة في أيدي اليهود.

ولبني إسرائيل مسـتعمرات زاهرة في زمار وخضـيرة فالأولى عبارة عن ١٣٠٠ هكتار بين القيسـارية والكرمل يدعونها بالعبرانية "ذكـر يعقـوب" ولهذه المسـتعـمرة ضـيع تلحق بهـا كطنطورة وأم الجمال وأم التوت وكفارة وعتليت. وأهل هذه المحطات نحو ألفي نفس . أنشـئت هذه المسـتـعمرة سنـة ١٦٢ وهي اليوم تحت حـماية روتشيلد الذي لا يزال يعني بتحسينها وتوسيـعها. أما خضيرة فقد امتلـكتها شـركات روسـية سنة ١٨٩٠ وغـرست فيـها ١٥٠٠٠٠ نصبة كرم.

ولهم أيضـاً أملاك واسـعة عند جـبل الطور في مكان يعـرف بالشجرة وفي سهول مرج ابن عامر . قيل أنهم استملكوا هناك نيفا والفي هكتار.

وفي البطائح المذكـورة مكان يدعى أبا شوشة مـساحتـه أربعة آلاف هكتـار تخص اليـهـود القدسـيين برغـيم ((Bergheim أصـحـاب مـصـرف في أورشليم. ويقـوم بشـئـون هذه الأراضي فلاحون بلديون يؤدون ربع غلاتهم لأصحاب الملك.

٥- حوران وعبر الأردن

أن أملاك اليهود في حوران أوسع من مقاطعة كبرى من مقاطعات الشام ولجنتهم الفلسطينية في باريس قد تمكنت في عام ١٨٩٢ من ابتياع ١٢٠٠٠ هكتار في جوار قرية شيخ سعد تشتمل على ضياع سحم جولان وجلين وتل عميدون وبيت أكار الخ خلا ٩٠٠٠ هكتار غيرها جعلها اليهود ملكاً لهم في محلات أخرى كبيتيا وخان الشيخ قريباً من دمشق عند سفح جبل حرمون.

لكن اليهود يعرفون من الأسفار القديمة ما لبلاد جلعاد ومؤاب في عبر الأردن من الخصب والدسم فلم تمل بهم عنها بارقة الطمع وحاولوا امتلاك تلك الأقطار . ولما كان اللورد غوشن الإسرائيلي سفيراً في الآستانة عرض على الحكومة السنية أن يجعل تلك النواحي التي مساحتها نحو ٦٠٠٠٠٠ هكتار مستعمرة لليهود تحت نظارة الباب العالي يسوسونها كما يشاؤون بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغاً عظيماً من الدراهم لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات.

غير أن الدولة السنية لم تلب دعاء اللورد غوشن وأغنياء اليهود فذهبت آمالهم أدراج الرياح. وكانت غايتهم بذلك أن يمدوا الطريق لأبناء جلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة في الأراضي المقدسة كما كانت قبل المسيح.

هذا ولم يزل اليهود يطمحون ببصرهم نحو عبر الأردن. ولما أجتزنا منذ ثلاث سنين في تلك الأقطار أخبرنا مختار مكيس أن للبارون دي روتشيلد عمالاً في تلك النواحي يطوفونها في كل جهاتها ليمتلكوا ليستدهم أراضي يجعل فيها اليهود ليفلحوا ويستغلوا غلاتها.

فما تقدم يظهر أن لليهود في فلسطين نحو خمسين ألف هكتار. أما عددهم فقريب من ٨٠٠٠٠ نفس وهم في ازدياد متداوم لأن مهاجرة اليهود إلى الأراضي المقدسة متواصلة يتقاطرون إليها من كل أنحاء العالم.

١	المهمشون في التاريخ الإسلامي	د/ محمود إسماعيل
٢	نحو تحديث دراسة التاريخ الإسلامي	د/ محمد تضغوت
٣	في نقد المثقف والسلطة	أ/ أيمن عبد الرسول
٤	إشكالية المنهج في دراسة التراث	د/ محمود إسماعيل
٥	حوار المشرق والمغرب	د/ حسن حنفي-د.عابد الجابري
٦	في نقد حوار المشرق والمغرب	د/ محمود إسماعيل
٧	بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب	د/ إبراهيم القادري بوتشيش
٨	فرق الشيعة بين الدين والسياسة	د/ محمود إسماعيل
٩	التراث وقضايا العصر	د/ محمود إسماعيل
١٠	جون قرنق رؤيته للسودان الجديد وإعادة بناء الدولة السودانية	د/ الواثق كمير
١١	تغطية الإسلام (إدوارد سعيد)	ترجمةد/ محمد عناني

١٢	ختان الذكور بين الدين والطب والثقافة والتاريخ	د/ سهام عبد السلام
١٣	الرحلة في الأدب العربي	د/ شعيب حليفي
١٤	الحب عند ابن حزم الأندلسي وأبي داود الأصفهاني	د/ محمود إسماعيل
١٥	من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام	د/ بندلي جوزي
١٦	الحركات السرية في الإسلام	د/ محمود إسماعيل
١٧	مقدمة في فقه اللغة	د/ لويس عوض
١٨	الفكر الإسلامي الحديث بين السلفيين والمجددين	د/ محمود إسماعيل
١٩	الرسالة المصرية "صحف إدريس المصري"	المستشار/ محمد سعيد العشماوي

٢٠	صراع الأمم	المستشار/ محمد سعيد العشماوي
٢١	صدام ما بعد الحداثة إدوارد سعيدوتدوين التاريخ	ترجمةد/ عفاف عبدالمعطي
٢٢	لعبة الحداثة بين الجنرال والباشا	د/ علي مبروك
٢٣	في نقد الإسلام الوضعي	أ/ أيمن عبد الرسول
٢٤	المثقف والسلطة (إدوارد سعيد)	ترجمة د/ محمد عناني
٢٥	السرد العربي مفاهيم .. تجليات	سعيد يقطين
٢٦	الصورة السردية في الرواية والقصة والسينما	د/ شرف الدين ماجودلين
٢٧	السرد بين الرواية المصرية والأمريكية	د/ عفاف عبد المعطي
٢٨	الرواية والتراث السردي	د/ سعيد يقطين
٢٩	مناهج البحث	د/ عبد الاله بن مليح- د/ محمد استيتو
٣٠	الشعر الجاهلي	د/ طه حسين
٣١	الاستشراق (إدوارد سعيد)	ترجمةد/ محمد عناني
٣٢	ذكريات وراء القضبان	الفريد فرج
٣٣	في تأويل التاريخ والتراث	د/ محمود إسماعيل
٣٤	الخطاب السياسي الاشعري	د/ علي مبروك
٣٥	أبعاد الصورة - "سوزان سونتاج"	ترجمةد/ عفاف عبد المعطي
٣٦	جدل الأنا والآخر	د/ محمود إسماعيل
٣٧	عز الدين بن شداد مؤرخا	د/ سند أحمد سند

٣٨	ابن حزم الظاهري وآثره في المجتمع الأندلسي	أ/ عبد الباقي السيد
٣٩	الرق في المغرب منذ بداية الفتح الإسلامي	د/ خالد حسين
٤٠	ما وراء تأسيس الأصول	د/ علي مبروك
٤١	آورا - "كارلوس فوينتس" (رواية)	ترجمة/ صالح علماني
٤٢	باولا - "ايزبيل ألليتدي" (رواية)	ترجمة/ صالح علماني
٤٣	مصرع أحلام مريم الوديعة (رواية)	واسيني الأعرج
٤٤	ذاكرة الماء (رواية)	واسيني الأعرج
٤٥	المفكرون العرب والصهيونية وفلسطين	أ/ حلمي النمنم
٤٦	فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا	د/ عادل مصطفى
٤٧	التفكير في العلمانية	د/ كمال عبد اللطيف
٤٨	ثقافة المقاومة	د/ فايز رشيد
٤٩	الحداثة ونقد الأدلوجة الأصولية التمامية	أ/ مصطفى خُلال
٥٠	الخريطة المعرفية للمجتمع العالمي	أ/ السيد يسين

